السُّنّة

ودورها في الحفاظ على الوَحدةِ المنهجيةِ للأمّة

الدكتور
عبد الله شعبان

Scanned with CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

وبعد :

فإن السنة النبوية سفينة النجاة من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق .

والأخذ بها عصمة بكتاب الله ، وقوة على دين الله .

وهى اختيار الله - سبحانه - لرسوله - ﷺ .

وهى الدين ، والعلم ، والمنهج ، والعصمة ، والحق ، والقوة .

وأمر الناس فى خير وصلاح ما داموا على الأثر ، وما داموا يطلبونه .

فإن زاغوا عنه هلكوا .

وأهل السنة هم العلماء ، والطائفة المنصورة ، القائمة على الحق ، العاملة له ، به قامت وبها يقوم .

لذا يجب أن نعود إليها .

وأن نقيد كل أمر بها .

فإن تأبينا وأبينا إلا المناهج الفاشلة ، والمذاهب الجائرة ، والدعوات الضالة ، فإن منهج الله لا بد وأن يبلغ غايته ومداه .

Scanned with CamScanner

" ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر

إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزا يعز به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر " (١) .

إن العودة هى السبيل إلى حفظ ما تبقى لدى الأمة من مقومات .

فهل إلى مرد من سبيل ؟ وهل يسعنا العمل على إحياء هذا الدور ؟ واستثماره ؟ لتفك الأمة أسرها ، وتعتق رقابها ، وتعيد ترتيب وتشكيل عقلها المسلم وفق أساسيات المنهج ؟ وليمنحها القدرة على التحريك الواعى والدفع نحو النهضة والحياة والأمل .

ويعينها على إيجاد مشروع ثقافى تربوى يعيد لها كذلك الاستقلال ، ويعمق الشعور بالولاء والانتماء لمنهجها .

لاشك أن المنهج هو الذى يملك ذلك .

ولاشك أن طرح هذا المشروع فى هذا الوقت من الأهمية .

فأقل ما يوصف به الوقت أنه وقت غربة ، تية ، تفكك ، مع أننا كأمة صاحبة منهج بكل ما نملك من مقومات التوحد والترابط ، نسير فى الاتجاه المعاكس لطبائع الأشياء ، ولما لم تضبط الأمة قضاياها لا بالأخلاق ولا بالأعراف ، لم تحقق شيئاً يذكر لا للدين ولا للدنيا .

ولما كان الأمر كذلك أحببت تقديم هذه المساهمة ، محاولاً إبراز دور السنة فى الحفاظ على الوحدة المنهجية للأمة ، ليعرف

١- أخرجه أحمد فى مسنده ١٠٣/٤ من رواية تميم الدارى ، و٦/٤ من رواية المقداد بن الأسود .

Scanned with CamScanner

كل مسلم موضع قدمه ، وليدرك أن وحدة المنهج لعم زاد الانطلاق ، ومن ثمَّ محو ضعف الأمة ، وزياد قوتها قوة ، وأن يدرك الذين يتهمون المنهج الإسلامى ككل والسنة النبوية بوجه خاص أن بهما عجزاً وقصوراً عن مواجهة متطلبات الحياة .

إن السنة تغطيه شاملة لكافة نواحى الحياة ومتطلباتها .

والبحث بعد المقدمة يدور حول مبحثين :

- الأول : حرص السنة على استقلال الوحدة المنهجية للأمة ، وفيه بيان لأهمية المنهج ، خصائص الوحدة المنهجية ، مرتكزاتها ، أهميتها .
- الثانى : مظاهر عناية السنة بالوحدة المنهجية للأمة ، هذه العناية تقوم بعاملين :

أ ـ درء مفاسد " النواهى " .

ب ـ جلب مصالح " الأوامر " .

فى العامل الأول كان رفض السنة للأفكار الوافدة ، اجتناب أصحاب البدع والأهواء ، البعد عن الأسباب الجالبة للاختلاف المذموم ، التحذير من الجمود على الرأى الواحد وجحد ما عداه ، ترك المراء والجدال .

- أبنت عن الأسباب التى حملتنى على تقديم هذا العامل على ما بعده .

فى العامل الثانى ـ كان الكلام فيه مجملاً ، وهو أمر قد صممت البحث وبنيت خطتى بداية على أساس منه .

Scanned with CamScanner
يمكن تحويل ب CamScanner

لذا ذكرت عناصره دون تفصيل ، وكان منها :

العيش فى ظلال الجماعة ، الاعتصام بحبل الله تعالى ، وجوب إحياء فقه الدعوة ، أن تبنى الأمة فكرها وتشكل عقلها من جديد على أساس من الفقه العملى للإسلام ، الحفاظ على اللغة العربية ، ودراسة التاريخ .

- التزمت قدر الإمكان بمتطلبات البحث وقواعده من تخريج للنص ، رد الأقوال إلى أصحابها ، فذلك من بركات العلم ، التعريف بالأعلام مع الإحالة إلى مصادر التعريف .
- اجتهدت فى إبراز موقف علماء السنة ، ودورهم الريادى فى الحفاظ على وحدة المنهج للأمة وقدسيته ، وعلماء السنة هم موازين العدل والخير فى كل زمان ومكان ، هم الظاهرون على الحق ، الغرباء ، الطائفة المنصورة .
- جعلت الخاتمة فى بيان أهم النتائج التى توصلت إليها ، وقد ضمنتها رجاءً ودعاءً لعل الله يقبل ، ويهيىء لنا من أمرنا رشدا .

إنه ولى ذلك والقادر عليه .

الباحث

Scanned with CamScanner

المبحث الأول
حرص السَّنةِ على استقلال الوَحدة المنهجية للأمَّة

Scanned with CamScanner
تم تحويل بواسطة CamScanner

الأمة بدون منهج بناء بلا أساس ، خطوط بلا وضوح أو أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا عقول .

ولأهمية المنهج فإن الله - تعالى - لم يخل أمة منه .

قال الله - تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة /٤٨ .

والكلمة فى اللغة والقرآن والسنة تدور حول أمور هى :

الطريق الواضح البين ، التتابع ، الانبهار ، الإستبانة ، الخطة المرسومة ، الطريق المستقيم ، السبيل والسنة [١] .

ولنا مثل ما لغيرنا من منهج ، بل أفضل ، وأعز ، وأكرم وأعلى وأقوم ... وإن انتاب الأمة منذ أمد حالة من التيه فقدت معه الطريق الواضح البين ، والخطة المرسومة ، فباتت مهتزة متعثرة ، مما أدى إلى خروجنا من ذاتيتنا ومقوماتنا تحت سيطرة البريق والمتابعة بغير دليل .

إن أعز ما دعينا إليه : الحفاظ على منهجنا بطابعه الأصيل كى لا يوضع بين دعوات ومذاهب مختلفة ، من نتاج البشر فيرتهن بها فى بقائها ، أو القضاء عليها .

فكل سطر إلى زوال ، وكل نتاج عقول البشر إلى اضمحلال إلا نتاج عقل يستمد من القرآن أو يقتبس من السنة ، فله البقاء والاستمرار .

١- انظر فتح البارى ٤٦/١ ، المفردات /٥٠٦ ، النهاية فى غريب الحديث ١٣٤/٥ ، لسان العرب ٣٨٣/٢ ، ط دار صادر ، بصائر ذوى التميز ١٢٨/٥ ، ترتيب القاموس المحيط ٤٤٨/٤ ط : الحلبى

Scanned with CamScanner

من ثمَّ فإن الإسلام بذاته ونبيه - ﷺ فى أعلى سمات المنهجية ، كذا علماء السنة فقد ساعدتهم المعايشة ، والمشاكلة ، والملازمة للسنة ودواوينها ، والوقوف الدائم على حكمها وأحكامها على الإتباع والإقتداء حتى كان نصيبهم وافراً ، وحظهم واسعاً من المنهجية وأصولها .

ولسنا بحاجة إلى التأصيل لمنهجية الإسلام ككل ، ودور السنة فى الحفاظ على الوحدة المنهجية للأمة ، فذلك مما يصعب استقصاؤه .

لكن ما لابد منه أن نشير إلى أساسيات ذلك ، ومنها :

- الدعوة إلى استخدام منهج التثبت والتحرى ، فلا نقبل إلا ببرهان وبينة ، ولا نرد إلا ببرهان وبينة كذلك ، وبالتالى لا يعير الإنسان أذنه لكل أحد .
- الدعوة إلى الرجوع إلى أهل الدراية ، والخبرة عند النزاع ، فكل علم يسأل عنه أهله ، قال الله تعالى :

﴿ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ الفرقان /٥٩ .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر /١٤.

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء /٧ .

- الدعوة إلى الاستمساك بالقرآن والسنة والاعتصام بهما ، فهما سبيل العصمة ، والوقاية ، والنجاة ، إنه المنهج الذى كون الأمة ، وأنشأها من عدم ، ورباها من ضياع ، وجعلها طليعة الأمم وبشكل غير مسبوق ولا ملحوق ، قال الله تعالى :

Scanned with CamScanner
ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

الزخرف /٤٣ ، ٤٤ .

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

آل عمران /١٠١ .

وفى الحديث الذى رواه مسلم وغيره من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى - ﷺ - قال :" وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إذا اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسئلون عنى ؟ فما أنتم قائلون ؟ " (١) .

" وأنتم تسئلون عنى " " وسوف تسئلون " إن الحق إنما يخرج من مشكاة واحدة ، المهم دلالة السؤال ، وكونه واردا بعد الأمر بالإعتصام والاستمساك بالكتاب والسنة .

فعن أى شىء يكون السؤال ؟ إنها الإمامة والأمانة ، إنها قيادة البشرية ، والأخذ بالمنهج .

- ثم وفى السنة جملة من التكاليف الكفيلة بالحفاظ على وحدة المنهج سيكشف البحث عنها .

الوحدة المنهجية :

الخصائص ، المرتكزات ، الأهمية .

١- جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، كتاب الحج ٨٨٦/٢ ، وأبو داود فى سننه : كتاب المناسك ١٨٢/٢ ، وابن ماجه فى سننه ، كتاب المناسك ١٠٢٢/٢ جميعاً من حديث جابر ، واللفظ لمسلم .

Scanned with CamScanner

ا - إن خصائص الوحدة المنهجية هى بذاتها الخصائص العامة للإسلام ، فمن الإسلام صدرت ، وإليه تعود ، هى إسلامية المنبع ، والمنشأ ، والتوجه ، إنها صنع الله الذى أتقن كل شىء ، تمتاز بربانيتها ، وعمومها ، وشمولها ، وترابطها ، وتناسق أجزائها .

خصائص الوحدة المنهجية إذاً هى الخصائص العامة المميزة للإسلام ، والإسلام صاحب منهج متميز ، وخصائص مستقلة ، لذلك لا يتصالح أو يتواءم مع مناهج أخرى أيا كان موطنها ، ولربما التقى المنهج الإسلامى فى بعض جزيئاته مع جزيئات فكرية أو منهجية أخرى مختلفة إلا أن الأصول التى صدرت عنها تلك الجزيئات مختلفة تمام الاختلاف فيما بينها فى كل شىء .

ب - لابد للوحدة المنهجية من مرتكزات تقوم عليها ، وإلا باتت ضرباً من الوهم والخيال ، وعرضه للإقبال والإدبار .

- ومرتكزاتها هى تلك الأصول الثابتة التى يقوم عليها الإسلام ، هذه الأصول يقينية لا تقبل شكا أو جدلا ، فمصدرها الكتاب والسنة ، وبارتكازها على الكتاب والسنة اكتسبت الحيوية واليقظة ، والتأثير ، والاتصال المباشر بالقلب والضمير .

- ومن ثمَّ رصيد الفطرة مرتكز أساسى ، هذا الرصيد الكبير الفعال المتجاوب ، يتفاعل مع النفس ويعطيها سمة الأصالة والتميز ، وصعوبة الإحتواء أو الذوبان .

Scanned with CamScanner

هذه الفطرة لو تركت فإنها لا تملك إلا أن تعلن عن نفسها تمثلها للوحدة المنهجية ، إلا أن العوائق لها كثيرة ، والصوارف مقيتة ، " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ "

ثم يقول أبو هريرة - رضى الله عنه : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية سورة الروم /٣٠ [١] .

• ومع حقائق الإسلام الثابتة ، وأصوله اليقينية ، ورصيد الفطرة ، فمن المرتكزات :

منهج الإسلام الشامل لكل نواحى الكون ، وكل دعوة إلى أخذ بمنهج ما لا يستند إلى هذه المرتكزات ، فهى دعوة إلى منهج أرضى محكوم بزواله .

إن منهجية الإسلام دعوة شريفة يمكن أن يتلاقى المسلمون عليها ، فتجمع شتاتهم ، من عرب إلى ترك ، إلى بيض أو سود ، إلى أى جنس ، أو لون مما يتصور فى الطبيعة البشرية فى أرضنا هذه التى نعيش عليها الآن .

إنها الأصول التى تجمع ما تفرق من شمل الأمة .

والمنهج وما يحمله من عقيدة ، وما يفرضه من أخوة إيمانية

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الجنائز ٢٥/٣ ، ١١٨ وتفسير ١٤٣/٦ ، وقدر ١٥٣/٨ ، واللفظ له ، وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب القدر ٢٠٤٧/٣ ، وأبو داود فى سننه ، كتاب السنة ٢٢٩/٤ ، والترمذى فى سننه ، كتاب القدر ٤٤٧/٤ ، وأحمد فى مسنده ٢٢٣/٢ ، ٢٧٥ ، ومالك فى الموطأ /١٦٠ جميعاً من حديث أبى هريرة .

Scanned with CamScanner

صادقة ، لا تقف عند حد التفاعل المادى ، بل تتعداه لدرجة أن يكون الرأى واحداً ، والتصور واحداً ، والفكرة واحدة .

بل لقد تجاوز الأمر حدود الزمان والمكان ، واتصل الماضى بالحاضر ، وذابت الألوان والجنسيات ، ولم يربط بين الكل إلا منهج الإسلام .

جـ - *ومن أهميتها* :

- إعادة البناء ، والعودة إلى الأمر الأول وبالتالى الوصول بالمنهجية إلى العالمية .

إن العالمية إنما ترتبط بالعقل والقلب أكثر مما ترتبط بغيرهما ، وأهم ما تتحصن به : مواجهة الغزو العقلى والقلبى الذى لا يتوقف ، فإن تم البناء على أساس من التوحد العقلى والقلبى ففى ذلك ربط ماضى الأمة بحاضرها ، ومن ثمَّ تملك زمام المبادرة ، وغزو العالم بذات الأسلوب ، والعمل على امتلاك العقول .

أن من يتحكم فى الفكر ، ومركز التوجيه يمكنه أن يتحكم فى كل شىء .

إن اهتمام القرآن والسنة بالعقل والقلب والضمير ومغالاته فى تقديرهم إنما ذلك باعتبارهم مفاتيح الترابط وآلاته . ورغم امتلاك الأمة لكثير من مقومات التجمع والتوحد إلا أنه كما هو ظاهر من التجارب لم تؤت ثمارها ، أو لم يلتق أبناؤها على شىء ، وإن كان فإلى حين .

ولا كذلك الترابط القائم على المنهجية الإسلامية إنه إن تحقق

Scanned with CamScanner

سمى بالأفراد على المصالح الذاتية ، وأصبح الجميع كبيد واحد ، وأسرة واحدة .

وحد الرئى لنا والفكرة

كسهام جمعتها جعبة

نحن فكر وخيال واحد

ورجاء ومآل واحد [1]

- فى الوحدة المنهجية جمع لشتات الأمة ، وحفاظ على الوحدة العامة ، وفى ذلك قوتها وعزتها ؛ ذلك أن الاحتلال العقلى لأمة من الأمم يعنى ضياعها ، إن الاختراق العقلى لأمة من الأمم يعنى انهزامها النفسى .

والوحدة المنهجية تقوى ضعف الأمة ، وتزيد قوتها قوة .

- فى الوحدة القائمة على المنهج تحرر للأمة من التقليد والتبعية ، والإسلام ما عاب على الجاهلية القديمة شيئاً بمثل ما عاب عليها التقليد الأعمى ، لذلك كان حرصه على إطلاق العقل من أسر القيد وأغلال الهوى ، وربقة التقليد .

لهذا فإن أخطر ما أهمله المسلمون هو التفريط فى هذا الأمر ، والتهاون في التحذير من التبعية ، تلك التي جرت الأمة إلي مزالق الارتداد ومتاهته .

قال الله تعالي ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران / ١١٠ .

١- من ديوان الأسرار والرموز لمحمد إقبال / ٨٩.

Scanned with CamScanner

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المائدة / ٥١ .

إن طاعتهم ، وموالاتهم ، وتقليدهم إيمان بسيادتهم . وبالتالي الوقوع في الردة الفكرية وأوهام وأهواء المغضوب عليهم والضالين .

- وأخيراً ففي الوحدة المنهجية تحقيق لمعنى الأمة باستقلالها وأصالتها والوقوف عند حدود معالمها .

أمة لا بالشكل الذي هي عليه الآن ، وإنما أمه الخير بمقوماتها كما قال الله تعالي ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

آل عمران / ١١٠ .

إن لأمة الإسلام خصائص تجمع بينها ، ولها نظام خاص كذلك - فلم يجمع بين أبنائها أرض أو لغة أو مصالح فقط ، فهى عناصر لا اختيار للإنسان فيها ، والتى يجتمع على مثلها الحيوان كذلك .

بل لقد وصلت إلى حد الولاية والجسد الواحد ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ التوبة /٧١.

وفى الحديث : " ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (١) .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب ١٢/٨ ، ومسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة ١٩٩٩/٤ ، وأحمد فى مسنده ٢٧٠/٤ ، والبغوى فى شرح السنة ٤٦/١٣ جميعا من حديث النعمان بن بشير ، وفى معنى هذا الحديث وردت أحاديث كثيرة " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " " المؤمنون كرجل واحد "

Scanned with CamScanner

حرص السُّنة على استقلال وحدة المنهج وتميزه :

من اللحظات الأولى لمقدم النبى - ﷺ - المدينة المنورة ، ومع وضع الأساس لبناء الدولة الإسلامية الناشئة ، ومع أول بيان صادر عن القيادة الجديدة .

يظهر مدى الحرص على جعل المسلمين أمة واحدة ، مستقلة ذات كيان محدد المعالم ، ظاهر القسمات ، واضح فى كل شىء .

نظر النبى - ﷺ - بعين النبوة فوجد مجتمعاً خليط ثقافات وأفكار متعددة ، قائم على عصبيات وقوميات مختلفة ، محكوم بأهواء ونزعات متباينة ، لذا كان قصده - عليه الصلاة والسلام - تحديد ملامح أمته الجديدة ، وصناعة جماعة خالصة العقل والقلب والتصور والإعتقاد ، وخلع الوليد الناشىء بعيداً عن البيئة بكل عاداتها ، واهتماماتها ، وروابطها ، والانفصال به تماماً عما هى عليه من الدقائق الأولى لميلاده .

" بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى - ﷺ - بين المؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ... " (١)

هم إذاً أمة واحدة من دون الناس .

أمة بالمعنى الحقيقى الذى لم يظهر من قبل ، ولم يتحقق فى أى تجمع من التجمعات البشرية .

هم كذلك فى الماضى والحاضر ، والزمان والمكان ، فى

١- السيرة النبوية لابن هشام ١٠٦/٢ ط الكليات الأزهرية

Scanned with CamScanner

العادات والعبـادات ، والتقاليد ، فـى الروابط والمصالح ، فـى الميول والاتجاهات والتوجيهات .

وكما حققت ذلك فترة من الزمن عظيمة ، وحين كانت استحقت أن تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران /١١٠.

ومع الخيرية توحد ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الأنبياء /٩٢.

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المؤمنون /٥٢.

هـذا التوحـد مقصـود ومطلـوب فـى كـل شـىء حتـى لا تختلـط بغيرها ، أو يدخل فيها ما ليس منها .

وكى تبقى الفكرة الإسلامية على صفائها ونقائها ، فلا تتشوه ، أو تتأثر القيم والمفاهيم ، ويختلط الطيب بالخبيث ، ويأخذ الدخيل مكان الأصيل ، والعقـل والعلم مكـان الديـن ، وتحل البدع مكان السنن ... وينتهى الأمر - أمر الأمة إلى الاضطراب والخلط بين المفـاهيم ، والاختـلاف والتحـزب ، ويصبـح فـى كـل بلـد إمـام وإسلام ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولكى لا يحدث هذا التوالد ، ويبقى الحفـاظ على وحدة الأمـة ، واستقلالها المنهجى ، فقد خطت السنة فى سبيل ذلك خطوات بعيدة المـدى ، منـها مـا تقدم ضمن الأساسيات . كالاستمساك بـالوحى والاعتصام به .

هذا الأمر تشتد الحاجة إليه مع تقدم الزمـان ، وزيـادة الغربـة ، وكثرة العوائـق والعقبـات . وإحكـام خطـط الكيـد والمكـر . وتنـوع الفرق المنتمية إلى الإسلام .

Scanned with CamScanner
تم تصوير هذا بـ CamScanner

ولأنه يحتاج إلى صبر وثبات ، والاستقامة عليه تتطلب علما وعملاً واعتقاداً بأن الذى مكن من العلم ، وأعان على العمل إنما هو الله فقد أمر الله - سبحانه - عباده بدوام دعائه الهداية إلى المنهج ، وسلوك الصراط المستقيم .

ولما كان الصراط المستقيم أجل المطالب ، والوصول إليه أشرف المراتب فقد علم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه الحمد والثناء ، ثم التوسل بالعبودية والتوحيد .

إن طالب الهداية بعد تقديم هاتين الوسيلتين حقيق بالإجابة .

قال الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

ويلاحظ القارئ للآيات فى هذا الدعاء .

أنه بعد الحمد والثناء . وهذا من آداب الدعاء وشروطه .

أن الله - سبحانه - أضاف الصراط إلى السالكين له . وذلك لأن طالبه طالب أمر قل من يسلكه ، فالسالكون له أفراد غرباء ، والنفس مجبولة على مؤانسة الطبع . ووحشة التفرد .

" فأضاف الصراط إلى المنعم عليهم ليزول عن طالب الهداية وسلوك الصراط المستقيم ووحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه ، وليعلم أن رفيقه فى هذا الصراط هم الذين أنعم عليهم . فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له . فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً . كما قال بعض السلف : عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين . وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة

Scanned with CamScanner

الهالكين " (١)

ولهذا – فبعد الدعاء ، وإضافة الصراط إلى السالكين ، استثنى الله – تعالى – فئتين من الناس هم : أصحاب دين وكتاب ورسول : اليهود والنصارى .

فكأن الدعاء يتضمن الهداية إلى طريق آخر غير طريقهم ؛ لأنهم لن يهدوا إليها وقد ضلوا – لا ينصحك من خان نفسه .

من ثمَّ جاء تحذير السنة من مجرد التشبه بهم : " من تشبه بقوم فهو منهم " (٢)

وسببه : أن التشبه يوقع فى القلب نوعاً من مؤانسة الطبع ، والميل إليهم ، وموالاتهم ، والاختلاط بهم ، ومعه يرتفع التميز ، ويصبح الأمر كما قال الله – تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ... ﴾ المجادلة /١٤ .

ثم يأتى على هذه الحالة – الذبذبة ، والدوران فى منطقة الوسط – وقد يكون الاستقرار إلى الجانب الأخر . قال الله – تعالى - :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة /٥١

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ آل عمران /٢٨ .

١- مدارج السالكين ٢٩/١ .

٢- الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب اللباس ٤٤/٤ ، وأحمد فى مسنده ٥٠/٢ ، قال العجلونى :- رواه أحمد ، وأبو داود ، والطبرانى فى الكبير عن ابن عمر رفعه ، وفى سنده ضعف ، كما فى اللآلئ ، والمقاصد . لكن قال العراقى : فى سنده صحيح ، وله شاهد عند البزار عن حذيفة ، وأبى هريرة ، وعند أبى نعيم فى تاريخ أصبهان عن أنس ، وعند القضاعى عن طاووس ، وصححه ابن حبان ، كشف الخفاء ٣١٤/٢ .

Scanned with CamScanner

ومما ورد فى السنة : "*ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تتشبهوا باليهود ، ولا بالنصارى ؛ فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالكف* " [١] .

هذا النص وغيره لما خرج مخرج الزجر والتنفير من مضاهاة الغير : يهود أو نصارى ، أو غيرهم ، فمن أئمة السلف كسفيان الثورى [٢] من قال وقد أحسن : " من الأدب إجراء الأحاديث التى خرجت مخرج الزجر والتنفير على ظاهرها من غير تأويل ، فإنها إذا أولت خرجت عن مراد الشارع منها " [٣] .

وهو بهذا يحسم مادة التأويل خشية التبرير والتماس الأعذار ، فإن تأويلها قد يغرى بالتشبه عند من يقول : المعنى ليس منا فى تلك الخصلة ، وهو منا فى غيرها ، أو هو منهم فيما تشبه به فقط ، وليس منهم فيما سوى ذلك .

وتلك بداية وبوابة الفتن ، فبداية الفتنة تأويل .

وسداً للباب ، وقطعاً لدابر المضاهاة ينبغي الأخذ بمذهب الثوري ، فقد كشفت نصوص الشرع ما تنطوى عليه أبعاد متابعتهم ، وطاعتهم وفي ذلك قطع لمادة التشبه بهم .

١- أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الإستئذان ٥٦/٥ ، قال أبو عيسى : هذا حديث إسناده ضعيف ، وروى ابن المبارك هذا الحديث عن ابن لهيعة فلم يرفعه ، وأورده الهيثمى فى المجمع ، كتاب الأدب ٣٨/٨ ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : فيه من لم أعرفه.

٢- سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، سيد العلماء العاملين فى وقته " ٩٧-١٦١هـ" له ترجمة فى : الجرح والتعديل ٥٥١/١، ٢٢٢/٤، الحلية ٣٥٦/٦، تاريخ بغداد ١٥١/٩، وفيات الأعيان ٣٨٦/٢ ، تذكرة الحفاظ ٣٠٣/١، سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧، تهذيب التهذيب ١١١/٤ .

٣- الميزان الكبرى ١٨/١ .

من ذلك : الأمر بمخالفتهم ، هذا الأمر مقصود لذاته ظاهرا وباطنا ، ليتم الانقطاع عنهم ، والبعد عن موجبات ضلالهم وغضب الله - تعالي ، عليهم ، فإنه بمقدار ما تكون المخالفة لهم بمقدار ما تكون الاستقامة ، وتقوى الإرادة ، وحسن الهداية ، وصحة العقيدة ، وسلامة القلب والعكس تماما في التوافق معهم ، ولهذا فمن أخطر ما أهمله المسلمون ووقع فيه تفريط كبير : ترك الدعوة إلى التحذير من مضاهاتهم ، وإهمال التنبيه علي مخاطر التوافق .

إن من فرائض الشرع وضروراته تنبيه الناشئة من أبناء الأمة إلى هذا الشر المستطير ، وتحذيرهم منه وإعلامهم أن طاعة من حذرنا الله من طاعتهم لن تغنى من الله شيئا ، بل في طاعتهم قطع لمدد الله وعونه وتأييده.

قال الله تعالي : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

الجاثية / ١٨ ، ١٩ .

﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ الرعد /٣٧ .

﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة / ١٤٥ .

وفى القرآن من آيات النهى عن متابعتهم كثير .

Scanned with CamScanner

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [١] رحمه الله ـ تعالى :

" واعلم أن فى كتاب الله من النهى عن مشابهة الأمم الكافرة وقصصهم التى فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير " [٢] .

فإذا ما جئت إلى دواوين السنة وجدت فيها ما لا يحصى ، سواء فى ذلك النهى عن مشابهة أهل الكتاب أو الأمم الكافرة أيضاً .

من ذلك النهى عن التشبة بهم فى حب الدنيا والتنافس فيها ، فما تخوف النبى ـ ﷺ ـ على الأمة من شىء تخوفه من حبها الدنيا .

قال ـ ﷺ ـ لمن اعترضه من الأنصار بعد الصلاة ...

" أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟

" فقالوا : أجل يا رسول الله ، قال :

" فأبشروا وأملوا ما يسركم ؟؟

فوالله ما الفقر أخشى عليكم ؟

ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم " [٣] .

١- شيخ الإسلام : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحورانى " ٦٦١ ـ ٧١٠هـ " له ترجمة فى : البداية والنهاية ١٦٣/١٤ ، تذكرة الحفاظ ١٤٩٦/٤ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢٨٧/٢ ، الدرر الكامنة ٤٤/١ ،البدر الطالع ٦٣/١ ، طبقات الحفاظ /٥٢٠ ، شذرات الذهب ٨٠/١ .

٢- اقتضاء الصراط / ١٧ .

٣- جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ١٠٨/٥ ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الزهد ٢٢٧٤/٤ ، والترمذى فى سننه ، كتاب القيامة ٦٤٠/٤ ، وابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن ١٣٢٤/٢ جميعاً من حديث عمرو بن عوف ، واللفظ لمسلم

Scanned with CamScanner

والحذر من الشيء والتخوف منه نهى ضمنى عنه .

ومنه النهى عن تعاطى الأسباب الجالبة للاختلاف ، وكثرة الأسئلة والتشقيق ، والبحث فى الأغلوطات مما كان سببا فى هلاك الأمم السابقة ، قال - ﷺ : "***ذرونى ما تركتكم ؟ فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم***" (١) .

فيه دعوة إلى توقيره - ﷺ ، وعدم الإكثار عليه بالسؤال والاختلاف المفضى إلى المراء والتباغض ، والنزاع ، وإضاعة الوقت فيما لا ينبني عليه عمل حتى لا نقع فيما وقع غيرنا فيه فيصيبنا ما أصابهم .

ومنه النهى عن التشعب والافتراق ، قال ﷺ :"***ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمة علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار إلا واحدة ، قالوا من هى يا رسول الله ؟ قال :" ما أنا عليه وأصحابى***" (٢) .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الاعتصام ١١٧/٩ ، ومسلم فى صحيحه : كتاب الحج ٩٧٥/٢ والترمذى فى سننه ، كتاب العلم ٤٧/٤ ، والنسائى فى سننه ، كتاب الحج ١٠/٥ وابن ماجه فى سننه مقدمة ٣/١ ، والبغوى فى شرح السنة ، كتاب الإيمان ١٩٨/١ جميعاً من حديث أبى هريرة .

٢- الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الإيمان ٢٦/٥ ، وقال : هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، والعقيلى فى الضعفاء ٢٦٢/٢ ، عند ترجمة عبد الله بن سفيان الخزاعى ، والحاكم فى المستدرك ، كتاب العلم ١٢٨/١ ، وأشار إلى أن إسناده مما لا يحتج به ، والحديث فى سنده عبد الرحمن الإفريقى ، اختلف فيه قول ابن القطان ، فوثقه مرة وضعفه أخرى ، ووثقه أحمد بن صالح المصرى ، وقال البخارى : مقارب الحديث ، الكاشف ١٤٦/٢ ، تهذيب التهذيب ١٧٣/٦ ، والحديث ضعيف من هذا الوجه لضعف الإفريقى وله شواهد تقوية وقد جود العراقى اسناده . انظر المغنى بهامش الإحياء ٢٣٠/٣

Scanned with CamScanner

ومنه النهى عن الإطراء وكل ما فيه شائبة تقديس ، ولما كان النبى - ﷺ - مظنة أن يتجه الناس إليه بلون من ألوان التقديس نهاهم عنه قائلاً :

"لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " (١) .

فنهاهم خوف الفتنة عليهم وعلى من بعدهم ، كما نهاهم عن القيام لبعضهم البعض تشبيهاً بالأعاجم .

فعن أنس - ﷺ - قال :***"لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله - ﷺ - وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك "*** (٢) .

وعن أبى أمامة - ﷺ قال :***" خرج رسول الله - ﷺ متوكئاً على عصا ، فقمنا إليه ، فقال :" لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا "*** (٣)

بل إن النبى - ﷺ - قد أمر بترك القيام الذى هو فرض فى الصلاة إذا كان الإمام يصلى قاعداً ، وعلل ذلك بأن قيام المأموم مع قعود الإمام يشبه فعل فارس والروم بعظمائهم فى قيامهم وهم قعود .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب بدء الخلق ٢٠٤/٤ ، والدارمى فى سننه ، كتاب الرقاق ٣٢٠/٢ ، أحمد فى مسنده ١٣/١ ، وابن حبان كما جاء فى الإحسان ٤٦/٨ ، والبغوى فى شرح السنة ١٣ / ١٤٦ ، والنووى فى الترخيص بالقيام / ٦٧ .

٢- أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الأدب ٩٠/٥ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، والنووى فى الترخيص بالقيام /٦٤ .

٣- أخرجه أبو داود فى سننه : كتاب الأدب ٣٥٥/٤ ، واللفظ له ، وأحمد فى مسنده ٢٥٦/٥ ، والنووى فى الترخيص بالقيام /٦٦ ، والحديث وإن كان فى سنده " أبو غالب " وقد اختلف فى اسمه وتوثيقه وتضعيفه لكن يشهد له حديث مسلم عن جابر " الذى بعده " .

Scanned with CamScanner

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -

" ومعلوم أن المأموم إنما نوى أن يقوم لله ، لا لإمامه ، وهذا تشديد عظيم فى النهى عن القيام للرجل القاعد " (١)

وروى جابر بن عبد الله - ﷺ - قال : " *اشتكى رسول الله - ﷺ - فصلينا وراءه وهو قاعد ، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعوداً ، فلما سلم ، قال :" إن كدتم آنفا تفعلون فعل فارس والروم ، يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ، إن صلى قائماً فصلوا قياما ، وإن صلى قاعدا فصلوا قعوداً* " (٢) .

ومنه النهى عن التشبه بهم فى الهيئات والعادات والتقاليد .

ويجمع هذا كله : النهى عن مشابهتهم فى كل أمر تقع فيه المشابهة والمماثلة قطعا لأطماعهم فى موافقتنا لهم حسما لمادة الشك والاستثناء والترخيص فى تجويز من جوز موافقتنا لهم فى بعض الأمور ، وسدا للباب وأخذا للأمر من جميع وجوهه .

قال - ﷺ - :" *إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم* " (٣) ، " *خالفوا المشركين* " : *احفوا الشوارب وأوفوا اللحى* " .(٤)

١- اقتضاء الصراط المستقيم / ٦٦

٢- أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الصلاة ٣٠٩/١ ، واللفظ له ، والنسائى فى سننه ، كتاب السهو ٩/٤ ، والبيهقى فى السنن الكبرى ، كتاب الجمعة ٢٩٣/٣ جميعا من حديث أبى الزبير عن جابر

٣- اقتضاء الصراط المستقيم / ٥٠ - ٥٧

٤- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الطهارة ٢٢٢/١ ، وفى اللباس ٢٦٠/٧ ، من حديث ابن عمر

Scanned with CamScanner

هذا الأمر بالمخالفة عام يدخل فيه كل ما تتأتى فيه المخالفة ، ويستوى

فى ذلك ما يتعلق بصبغ الشعر وإحفاء الشارب ، وترك اللحية ... وإن دخل فيه ما نص عليه الحديث باعتباره سبب إيراده من باب أولى .

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - بعد إيراده للحديث :" أمر بمخالفتهم ، وذلك يقتضى أن يكون جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً للشارع ؛ لأنه إن كان الأمر بجنس المخالفة حصل المقصود ، وإن كان الأمر بالمخالفة هى تغيير الشعر فقط فهو لأجل ما فيه من المخالفة ، فالمخالفة إما علة مفردة ، أو علة أخرى ، أو بعض علة ، وعلى جميع التقديرات تكون مأمورا بها للشارع ؛ لأن الفعل المأمور به إذا عبر عنه بلفظ مشتق من معنى أعم من ذلك الفعل فلابد أن يكون ما فيه الاشتقاق أمراً مطلوبا لا سيما إن ظهر هنا أن المعنى المشتق معنى مناسب للحكمة ، كما لو قيل للضيف : أكرمه بمعنى أطعمه ، وللشيخ الكبير : وقره بمعنى اخفض صوتك له ، ونحوه وذلك لوجوه " (١) .

هذه النصوص قاطعة للطمع فى المشابهة والموافقة لأهل الكتاب ولغيرهم من أمم الكفر فى كل ما يمكن أن تتحقق فيه المشابهة .

وقد فهم سلف الأمة منها كراهة التشبه بهم فى أشياء لم تنص على أعيانها ، وهى من أعمالهم .

١- اقتضاء الصراط المستقيم / ٥٠-٥٧

Scanned with CamScanner

جميع أعمالهم خالية من الصلاح والنفع ، وهى إما فاسدة ، أو ناقصة ،وهذا مانع من الإفادة منها .

إن مخالفتهم والبعد عنهم أمر مقصود من الشارع .

إن الأمر بمخالفتهم عام يدخل فيه كل ما عليه الأعاجم قديما وحديثاً ، وشامل كذلك للمسلمين قديما وحديثا .

إنه وبرغم تحذير القرآن والسنة من الوقوع فى مشابهتهم وموافقتهم إلا أن قدر الله واقع ، فقد وقعت المشابهة ، والمضاهاة لأمم الكفر فى كل شىء تقريباً ، وهذا ما أخبر به النبى - ﷺ .

فى ختام المبحث الأول لا بد من التأكيد على هذه الحقائق .

- حرص السنة ، على استقلال الأمة وتميزها فى ظل مجتمع غارق فى أوحال العصبيات ، والأفكار المختلفة ، هذا الأمر يجب أن يكون شعاراً سائداً ومرفوعاً على الدوام ، فى القديم والحديث ، الماضى والحاضر على السواء .
- إن أصالة الأمة فى استقلالها وتميزها ، وانتهائها إلى حدودها ومعالمها .
- إن الخروج عن استقلالنا وتميزنا يجرنا إلى سراب خادع لا صدق لأوله ولا قرار ، كما أنه يدفعنا إلى حالة من التيه والمقت .
- إن أخطر ما أهمله المسلمون وفرطوا فيه : ترك الدعوة إلى التحذير من متابعة أمم الكفر والكشف عن مخاطره الجسيمة ، يكفى أن يكون منها : متابعة الناس بغير برهان ، والخروج من ذاتيتنا ومقوماتنا .

Scanned with CamScanner

قال عبد الله بن مسعود - ﷺ - :" أنتم أشبه الأمم ببنى إسرائيل سمتاً وهدياً تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة غير أنى لا أدرى أتعبدون العجل أم لا ؟

وقال ابن عباس – رضى الله عنهما - : " ما أشبه الليلة بالبارحة ؟ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم " (١)

- إن الأمة حققت تميزها واستقلالها واعتزازها بأصالتها فترة زاهية من الزمن نأت خلالها عن خطط الكيد والتقليد والتأرجح .

وهى اليوم وغداً جديرة بأن تعود سيرتها الأولى ، يساعدها على ذلك :

- استمساكها بالوحى ، والاعتصام به ، والثبات عليه .
- إدراكها لمخاطر وأضرار التبعية والإمعية والتى منها :

- أنها تقود الأمة إلى الامتزاج فى الأخلاق والأعمال .

- إنها ربما قادت إلى حالة من الردة ، والهلاك والتشعب.

- الانسلاخ عن الجماعة المسلمة ، والانخراط فى سلك الأمم الكافرة .

- الخروج عن ذاتيتنا ومقومات وجودنا .

١- اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٨،٢٧ .

صادقة ، لا تقف عند حد التفاعل المادى ، بل تتعداه لدرجة أن يكون الرأى واحدا ، والتصور واحدا ، والفكرة واحدة .

بل لقد تجاوز الأمر حدود الزمان والمكان ، واتصل الماضى بالحاضر ، وذابت الألوان والجنسيات ، ولم يربط بين الكل إلا منهج الإسلام .

جـ - *ومن أهميتها* :

- إعادة البناء ، والعودة إلى الأمر الأول وبالتالى الوصول بالمنهجية إلى العالمية .

إن العالمية إنما ترتبط بالعقل والقلب أكثر مما ترتبط بغيرهما ، وأهم ما تتحصن به : مواجهة الغزو العقلى والقلبى الذى لا يتوقف ، فإن تم البناء على أساس من التوحد العقلى والقلبى ففى ذلك ربط ماضى الأمة بحاضرها ، ومن ثم تملك زمام المبادرة ، وغزو العالم بذات الأسلوب ، والعمل على امتلاك العقول .

أن من يتحكم فى الفكر ، ومركز التوجيه يمكنه أن يتحكم فى كل شىء .

إن اهتمام القرآن والسنة بالعقل والقلب والضمير ومغالاته فى تقديرهم إنما ذلك باعتبارهم مفاتيح الترابط وآلاته . ورغم امتلاك الأمة لكثير من مقومات التجمع والتوحد إلا أنه كما هو ظاهر من التجارب لم تؤت ثمارها ، أو لم يلتق أبناؤها على شىء ، وإن كان فإلى حين .

ولا كذلك الترابط القائم على المنهجية الإسلامية إنه إن تحقق

سمى بالأفراد على المصالح الذاتية ، وأصبح الجميع كبيت واحد ، وأسرة واحدة .

وحد الرئى لنا والفكرة

كسهام جمعتها جعبة

نحن فكر وخيال واحد

ورجاء ومآل واحد (١)

- فى الوحدة المنهجية جمع لشتات الأمة ، وحفاظ على الوحدة العامة ، وفى ذلك قوتها وعزتها ؛ ذلك أن الاحتلال العقلى لأمة من الأمم يعنى ضياعها ، إن الاختراق العقلى لأمة من الأمم يعنى انهزامها النفسى .

والوحدة المنهجية تقوى ضعف الأمة ، وتزيد قوتها قوة .

- فى الوحدة القائمة على المنهج تحرر للأمة من التقليد والتبعية ، والإسلام ما عاب على الجاهلية القديمة شيئاً بمثل ما عاب عليها التقليد الأعمى ، لذلك كان حرصه على إطلاق العقل من أسر القيد وأغلال الهوى ، وربقة التقليد .

لهذا فإن أخطر ما أهمله المسلمون هو التفريط فى هذا الأمر ، والتهاون في التحذير من التبعية ، تلك التي جرت الأمة إلي مزالق الارتداد ومتاهته .

قال الله تعالي ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران / ١١٠ .

١- من ديوان الأسرار والرموز لمحمد إقبال / ٨٩.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ المائدة / ٥١ .

إن طاعتهم ، وموالاتهم ، وتقليدهم إيمان بسيادتهم . وبالتالي الوقوع في الردة الفكرية وأوهام وأهواء المغضوب عليهم والضالين .

- وأخيراً ففي الوحدة المنهجية تحقيق لمعنى الأمة باستقلالها وأصالتها والوقوف عند حدود معالمها .

أمة لا بالشكل الذي هي عليه الآن ، وإنما أمه الخير بمقوماتها كما قال الله تعالي ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

آل عمران / ١١٠ .

إن لأمة الإسلام خصائص تجمع بينها ، ولها نظام خاص كذلك - فلم يجمع بين أبنائها أرض أو لغة أو مصالح فقط ، فهى عناصر لا اختيار للإنسان فيها ، والتى يجتمع على مثلها الحيوان كذلك .

بل لقد وصلت إلى حد الولاية والجسد الواحد ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ التوبة /٧١.

وفى الحديث : " ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (١) .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب ١٢/٨ ، ومسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة ١٩٩٩/٤ ، وأحمد فى مسنده ٢٧٠/٤ ، والبغوى فى شرح السنة ٤٦/١٣ جميعا من حديث النعمان بن بشير ، وفى معنى هذا الحديث وردت أحاديث كثيرة " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " " المؤمنون كرجل واحد "

حرص السُّنة على استقلال وحدة المنهج وتميزه :

من اللحظات الأولى لمقدم النبى - ﷺ - المدينة المنورة ، وم
وضع الأساس لبناء الدولة الإسلامية الناشئة ، ومع أول بيا
صادر عن القيادة الجديدة .

يظهر مدى الحرص على جعل المسلمين أمة واحدة ، مستقل
ذات كيان محدد المعالم ، ظاهر القسمات ، واضح فى كل شىء

نظر النبى - ﷺ - بعين النبوة فوجد مجتمعاً خليط ثقافات وأفكا
متعددة ، قائم على عصبيات وقوميات مختلفة ، محكوم بأهوا
ونزعات متباينة ، لذا كان قصده - عليه الصلاة والسلام - تحدي
ملامح أمته الجديدة ، وصناعة جماعة خالصة العقل والقل
والتصور والإعتقاد ، وخلع الوليد الناشىء بعيداً عن البيئة بكا
عاداتها ، واهتماماتها ، وروابطها ، والانفصال به تماماً عما ه
عليه من الدقائق الأولى لميلاده .

" بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى -ﷺ - بين
المؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم
أنهم أمة واحدة من دون الناس ..." (١)

هم إذاً أمة واحدة من دون الناس .

أمة بالمعنى الحقيقى الذى لم يظهر من قبل ، ولم يتحقق فى أ
تجمع من التجمعات البشرية .

هم كذلك فى الماضى والحاضر ، والزمان والمكان ، فى

١- السيرة النبوية لابن هشام ١٠٦/٢ ط الكليات الأزهرية

Scanned with CamScanner

العادات والعبادات ، والتقاليد ، فى الروابط والمصالح ، فى السلوك والاتجاهات والتوجيهات .

وكما حققت ذلك فترة من الزمن عظيمة ، وحين كانت استحقت أن تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران /١١٠.

ومع الخيرية توحد ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الأنبياء /٩٢.

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المؤمنون /٥٢.

هذا التوحد مقصود ومطلوب فى كل شىء حتى لا تختلط بغيرها ، أو يدخل فيها ما ليس منها .

وكى تبقى الفكرة الإسلامية على صفائها ونقائها ، فلا تتشوه ، أو تتأثر القيم والمفاهيم ، ويختلط الطيب بالخبيث ، ويأخذ الدخيل مكان الأصيل ، والعقل والعلم مكان الدين ، وتحل البدع مكان السنن ... وينتهى الأمر - أمر الأمة إلى الاضطراب والخلط بين المفاهيم ، والاختلاف والتحزب ، ويصبح فى كل بلد إمام وإسلام ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولكى لا يحدث هذا التوالد ، ويبقى الحفاظ على وحدة الأمة ، واستقلالها المنهجى ، فقد خطت السنة فى سبيل ذلك خطوات بعيدة المدى ، منها ما تقدم ضمن الأساسيات . كالاستمساك بالوحى والاعتصام به .

هذا الأمر تشتد الحاجة إليه مع تقدم الزمان ، وزيادة الغربة ، وكثرة العوائق والعقبات . وإحكام خطط الكيد والمكر . وتنوع الفرق المنتمية إلى الإسلام .

Scanned with CamScanner
تم تصوير هذا بـ CamScanner

ولأنه يحتاج إلى صبر وثبات ، والاستقامة عليه تتطلب علما وعملا واعتقادا بأن الذى مكن من العلم ، وأعان على العمل إنما هو الله فقد أمر الله - سبحانه - عباده بدوام دعائه الهداية إلى المنهج ، وسلوك الصراط المستقيم .

ولما كان الصراط المستقيم أجل المطالب ، والوصول إليه أشرف المراتب فقد علم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه الحمد والثناء ، ثم التوسل بالعبودية والتوحيد .

إن طالب الهداية بعد تقديم هاتين الوسيلتين حقيق بالإجابة .

قال الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

ويلاحظ القارئ للآيات فى هذا الدعاء .

أنه بعد الحمد والثناء . وهذا من آداب الدعاء وشروطه .

أن الله - سبحانه - أضاف الصراط إلى السالكين له . وذلك لأن طالبه طالب أمر قل من يسلكه ، فالسالكون له أفراد غرباء ، والنفس مجبولة على مؤانسة الطبع . ووحشة التفرد .

" فأضاف الصراط إلى المنعم عليهم ليزول عن طالب الهداية وسلوك الصراط المستقيم ووحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه ، وليعلم أن رفيقه فى هذا الصراط هم الذين أنعم عليهم . فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له . فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً . كما قال بعض السلف : عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين . وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة

Scanned with CamScanner

الهالكين " [١]

ولهذا ـ فبعد الدعاء ، وإضافة الصراط إلى السالكين ، استثنى الله ـ تعالى ـ فئتين من الناس هم : أصحاب دين وكتاب ورسول : اليهود والنصارى .

فكأن الدعاء يتضمن الهداية إلى طريق آخر غير طريقهم ؛ لأنهم لن يهدوا إليها وقد ضلوا ـ لا ينصحك من خان نفسه .

من ثمَّ جاء تحذير السنة من مجرد التشبه بهم : " من تشبه بقوم فهو منهم " [٢]

وسببه : أن التشبه يوقع فى القلب نوعاً من مؤانسة الطبع ، والميل إليهم ، وموالاتهم ، والاختلاط بهم ، ومعه يرتفع التميز ، ويصبح الأمر كما قال الله ـ تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ... ﴾ المجادلة /١٤.

ثم يأتى على هذه الحالة ـ الذبذبة ، والدوران فى منطقة الوسط ـ وقد يكون الاستقرار إلى الجانب الأخر . قال الله ـ تعالى - :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة /٥١

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ آل عمران /٢٨ .

١- مدارج السالكين ١/٢٩ .

٢- الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب اللباس ٤/٤٤ ، وأحمد فى مسنده ٢/٥٠ ، قال العجلونى :- رواه أحمد ، وأبو داود ، والطبرانى فى الكبير عن ابن عمر رفعه ، وفى سنده ضعف ، كما فى اللآلئ ، والمقاصد . لكن قال العراقى : فى سنده صحيح ، وله شاهد عند البزار عن حذيفة ، وأبى هريرة ، وعند أبى نعيم فى تاريخ أصبهان عن أنس ، وعند القضاعى عن طاووس ، وصححه ابن حبان ، كشف الخفاء ٢/٣١٤ .

Scanned with CamScanner
يمكنك تحويل ا ب CamScanner

ومما ورد فى السنة : "***ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تتشبهوا باليهود ، ولا بالنصارى ؛ فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالكف***" [١] .

هذا النص وغيره لما خرج مخرج الزجر والتنفير من مضاهاة الغير : يهود أو نصارى ، أو غيرهم ، فمن أئمة السلف كسفيان الثورى [٢] من قال وقد أحسن : " من الأدب إجراء الأحاديث التى خرجت مخرج الزجر والتنفير على ظاهرها من غير تأويل ، فإنها إذا أولت خرجت عن مراد الشارع منها " [٣] .

وهو بهذا يحسم مادة التأويل خشية التبرير والتماس الأعذار ، فإن تأويلها قد يغرى بالتشبه عند من يقول : المعنى ليس منا فى تلك الخصلة ، وهو منا فى غيرها ، أو هو منهم فيما تشبه به فقط ، وليس منهم فيما سوى ذلك .

وتلك بداية وبوابة الفتن ، فبداية الفتنة تأويل .

وسداً للباب ، وقطعاً لدابر المضاهاة ينبغي الأخذ بمذهب الثوري ، فقد كشفت نصوص الشرع ما تنطوى عليه أبعاد متابعتهم ، وطاعتهم وفي ذلك قطع لمادة التشبه بهم .

١- أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الإستئذان ٥٦/٥ ، قال أبو عيسى : هذا حديث إسناده ضعيف ، وروى ابن المبارك هذا الحديث عن ابن لهيعة فلم يرفعه ، وأورده الهيثمى فى المجمع ، كتاب الأدب ٣٨/٨ ، وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط ، وقال : فيه من لم أعرفه.

٢- سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، سيد العلماء العاملين فى وقته " ٩٧-١٦١هـ" له ترجمة فى : الجرح والتعديل ٥٥١/١، ٢٢٢/٤، الحلية ٣٥٦/٦، تاريخ بغداد ١٥١/٩، وفيات الأعيان ٣٨٦/٢ ، تذكرة الحفاظ ٣٠٣/١، سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧، تهذيب التهذيب ١١١/٤ .

٣- الميزان الكبرى ١٨/١ .

Scanned with CamScanner

من ذلك : الأمر بمخالفتهم ، هذا الأمر مقصود لذاته ظاهرا وباطنا ، ليتم الانقطاع عنهم ، والبعد عن موجبات ضلالهم وغضب الله - تعالي ، عليهم ، فإنه بمقدار ما تكون المخالفة لهم بمقدار ما تكون الاستقامة ، وتقوى الإرادة ، وحسن الهداية ، وصحة العقيدة ، وسلامة القلب والعكس تماما في التوافق معهم ، ولهذا فمن أخطر ما أهمله المسلمون ووقع فيه تفريط كبير : ترك الدعوة إلى التحذير من مضاهاتهم ، وإهمال التنبيه علي مخاطر التوافق .

إن من فرائض الشرع وضروراته تنبيه الناشئة من أبناء الأمة إلى هذا الشر المستطير ، وتحذيرهم منه وإعلامهم أن طاعة من حذرنا الله من طاعتهم لن تغنى من الله شيئا ، بل في طاعتهم قطع لمدد الله وعونه وتأييده.

قال الله تعالي : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

الجاثية / ١٨ ، ١٩ .

﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ الرعد /٣٧ .

﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة / ١٤٥ .

وفى القرآن من آيات النهى عن متابعتهم كثير .

Scanned with CamScanner

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [١] رحمه الله - تعالى :

" واعلم أن فى كتاب الله من النهى عن مشابهة الأمم الكافرة وقصصهم التى فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير " [٢] .

فإذا ما جئت إلى دواوين السنة وجدت فيها ما لا يحصى ، سواء فى ذلك النهى عن مشابهة أهل الكتاب أو الأمم الكافرة أيضا .

من ذلك النهى عن التشبة بهم فى حب الدنيا والتنافس فيها ، فما تخوف النبى - ﷺ - على الأمة من شىء تخوفه من حبها الدنيا .

قال - ﷺ - لمن اعترضه من الأنصار بعد الصلاة ...

" أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟

" فقالوا : أجل يا رسول الله ، قال :

" فأبشروا وأملوا ما يسركم ؟؟

فوالله ما الفقر أخشى عليكم ؟

ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم " [٣] .

١- شيخ الإسلام : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحورانى " ٦٦١ - ٧١٠هـ " له ترجمة فى : البداية والنهاية ١٦٣/١٤ ، تذكرة الحفاظ ١٤٩٦/٤ ، ذيل طبقات الحنابلة ٢٨٧/٢ ، الدرر الكامنة ٤٤/١ ،البدر الطالع ٦٣/١ ، طبقات الحفاظ /٥٢٠ ، شذرات الذهب ٨٠/١ .

٢- اقتضاء الصراط / ١٧ .

٣- جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ١٠٨/٥ ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الزهد ٢٢٧٤/٤ ، والترمذى فى سننه ، كتاب القيامة ٦٤٠/٤ ، وابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن ١٣٢٤/٢ جميعاً من حديث عمرو بن عوف ، واللفظ لمسلم

Scanned with CamScanner

والحذر من الشيء والتخوف منه نهى ضمني عنه .

ومنه النهى عن تعاطى الأسباب الجالبة للاختلاف ، وكثرة الأسئلة والتشقيق ، والبحث فى الأغلوطات مما كان سببا فى هلاك الأمم السابقة ، قال - ﷺ : "ذرونى ما تركتكم ؟ فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم " (١)

فيه دعوة إلى توقيره - ﷺ ، وعدم الإكثار عليه بالسؤال والاختلاف المفضى إلى المراء والتباغض ، والنزاع ، وإضاعة الوقت فيما لا ينبنى عليه عمل حتى لا نقع فيما وقع غيرنا فيه فيصيبنا ما أصابهم .

ومنه النهى عن التشعب والافتراق ، قال ﷺ :"ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلها فى النار إلا واحدة ، قالوا من هى يا رسول الله ؟ قال :" ما أنا عليه وأصحابى " (٢) .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الاعتصام ١١٧/٩ ، ومسلم فى صحيحه : كتاب الحج ٩٧٥/٢ والترمذى فى سننه ، كتاب العلم ٤٧/٤ ، والنسائى فى سننه ، كتاب الحج ١٠/٥ وابن ماجه فى سننه مقدمة ٣/١ ، والبغوى فى شرح السنة ، كتاب الإيمان ١٩٨/١ جميعاً من حديث أبى هريرة .

٢- الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الإيمان ٢٦/٥ ، وقال : هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، والعقيلى فى الضعفاء ٢٦٢/٢ ، عند ترجمة عبد الله بن سفيان الخزاعى ، والحاكم فى المستدرك ، كتاب العلم ١٢٨/١ ، وأشار إلى أن إسناده مما لا يحتج به ، والحديث فى سنده عبد الرحمن الإفريقى ، اختلف فيه قول ابن القطان ، فوثقه مرة وضعفه أخرى ، ووثقه أحمد بن صالح المصرى ، وقال البخارى : مقارب الحديث ، الكاشف ١٤٦/٢ ، تهذيب التهذيب ١٧٣/٦ ، والحديث ضعيف من هذا الوجه لضعف الإفريقى وله شواهد تقوية وقد جود العراقى اسناده ، انظر المغنى بهامش الإحياء ٢٣٠/٣

Scanned with CamScanner

ومنه النهى عن الإطراء وكل ما فيه شائبة تقديس ، ولما كان النبى - ﷺ - مظنة أن يتجه الناس إليه بلون من ألوان التقديس نهاهم عنه قائلاً :

"لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله " (١) .

فنهاهم خوف الفتنة عليهم وعلى من بعدهم ، كما نهاهم عن القيام لبعضهم البعض تشبيهاً بالأعاجم .

فعن أنس - ﷺ - قال :***"لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله - ﷺ - وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك "*** (٢) .

وعن أبى أمامة - ﷺ قال :***" خرج رسول الله - ﷺ متوكئاً على عصا ، فقمنا إليه ، فقال :" لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا "*** (٣)

بل إن النبى - ﷺ - قد أمر بترك القيام الذى هو فرض فى الصلاة إذا كان الإمام يصلى قاعداً ، وعلل ذلك بأن قيام المأموم مع قعود الإمام يشبه فعل فارس والروم بعظمائهم فى قيامهم وهم قعود .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب بدء الخلق ٢٠٤/٤ ، والدارمى فى سننه ، كتاب الرقاق ٣٢٠/٢ ، أحمد فى مسنده ١٣/١ ، وابن حبان كما جاء فى الإحسان ٤٦/٨ ، والبغوى فى شرح السنة ١٣ / ١٤٦ ، والنووى فى الترخيص بالقيام / ٦٧ .

٢- أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الأدب ٩٠/٥ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، والنووى فى الترخيص بالقيام /٦٤ .

٣- أخرجه أبو داود فى سننه : كتاب الأدب ٣٥٥/٤ ، واللفظ له ، وأحمد فى مسنده ٢٥٦/٥ ، والنووى فى الترخيص بالقيام /٦٦ ، والحديث وإن كان فى سنده " أبو غالب " وقد اختلف فى اسمه وتوثيقه وتضعيفه لكن يشهد له حديث مسلم عن جابر " الذى بعده " .

Scanned with CamScanner

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - :

" ومعلوم أن المأموم إنما نوى أن يقوم لله ، لا لإمامه ، وهذا تشديد عظيم فى النهى عن القيام للرجل القاعد " (١)

وروى جابر بن عبد الله - ﷺ - قال : "*اشتكى رسول الله - ﷺ - فصلينا وراءه وهو قاعد ، فأشار إلينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعوداً ، فلما سلم ، قال :" إن كدتم آنفاً تفعلون فعل فارس والروم ، يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ، إن صلى قائماً فصلوا قياما ، وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً* " (٢) .

ومنه النهى عن التشبه بهم فى الهيئات والعادات والتقاليد .

ويجمع هذا كله : النهى عن مشابهتهم فى كل أمر تقع فيه المشابهة والمماثلة قطعاً لأطماعهم فى موافقتنا لهم حسماً لمادة الشك والاستثناء والترخيص فى تجويز من جوز موافقتنا لهم فى بعض الأمور ، وسداً للباب وأخذاً للأمر من جميع وجوهه .

قال - ﷺ - :" *إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم* " (٣) ، " **خالفوا المشركين** " : *احفوا الشوارب وأوفوا اللحى* " .(٤)

١- اقتضاء الصراط المستقيم / ٦٦

٢- أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الصلاة ٣٠٩/١ ، واللفظ له ، والنسائى فى سننه ، كتاب السهو ٩/٤ ، والبيهقى فى السنن الكبرى ، كتاب الجمعة ٢٩٣/٣ جميعا من حديث أبى الزبير عن جابر .

٣- اقتضاء الصراط المستقيم / ٥٠ - ٥٧

٤- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الطهارة ٢٢٢/١ ، وفى اللباس ٢٦٠/٧ ، من حديث ابن عمر

Scanned with CamScanner

هذا الأمر بالمخالفة عام يدخل فيه كل ما تتأتى فيه المخالفة ويستوي

في ذلك ما يتعلق بصبغ الشعر وإحفاء الشارب ، وترك اللحية ... وإن دخل فيه ما نص عليه الحديث باعتباره سبب إيراده من باب أولى .

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله - بعد إيراده للحديث :" أمر بمخالفتهم ، وذلك يقتضي أن يكون جنس مخالفتهم أمرا مقصودا للشارع ؛ لأنه إن كان الأمر بجنس المخالفة حصل المقصود ، وإن كان الأمر بالمخالفة هي تغيير الشعر فقط فهو لأجل ما فيه من المخالفة ، فالمخالفة إما علة مفردة ، أو علة أخرى ، أو بعض علة ، وعلى جميع التقديرات تكون مأمورا بها للشارع ؛ لأن الفعل المأمور به إذا عبر عنه بلفظ مشتق من معنى أعم من ذلك الفعل فلابد أن يكون ما فيه الاشتقاق أمرا مطلوبا لا سيما إن ظهر هنا أن المعنى المشتق معنى مناسب للحكمة ، كما لو قيل للضيف : أكرمه بمعنى أطعمه ، وللشيخ الكبير : وقره بمعنى اخفض صوتك له ، ونحوه وذلك لوجوه " [1] .

هذه النصوص قاطعة للطمع في المشابهة والموافقة لأهل الكتاب ولغيرهم من أمم الكفر في كل ما يمكن أن تتحقق فيه المشابهة .

وقد فهم سلف الأمة منها كراهة التشبه بهم في أشياء لم تنص على أعيانها ، وهي من أعمالهم .

١- اقتضاء الصراط المستقيم / ٥٠-٥٧

Scanned with CamScanner

جميع أعمالهم خالية من الصلاح والنفع ، وهى إما فاسدة ، أو
قصة ،وهذا مانع من الإفادة منها .

إن مخالفتهم والبعد عنهم أمر مقصود من الشارع .

إن الأمر بمخالفتهم عام يدخل فيه كل ما عليه الأعاجم قديما
حديثا ، وشامل كذلك للمسلمين قديما وحديثا .

إنه وبرغم تحذير القرآن والسنة من الوقوع فى مشابهتهم
وافقتهم إلا أن قدر الله واقع ، فقد وقعت المشابهة ، والمضاهاة
م الكفر فى كل شىء تقريباً ، وهذا ما أخبر به النبى - ﷺ .

فى ختام المبحث الأول لا بد من التأكيد على هذه الحقائق .

١ حرص السنة ، على استقلال الأمة وتميزها فى ظل مجتمع غارق فى أوحال العصبيات ، والأفكار المختلفة ، هذا الأمر يجب أن يكون شعاراً سائداً ومرفوعاً على الدوام ، فى القديم والحديث ، الماضى والحاضر على السواء .

إن أصالة الأمة فى استقلالها وتميزها ، وانتهائها إلى حدودها ومعالمها .

إن الخروج عن استقلالنا وتميزنا يجرنا إلى سراب خادع لا صدق لأوله ولا قرار ، كما أنه يدفعنا إلى حالة من التيه والمقت .

إن أخطر ما أهمله المسلمون وفرطوا فيه : ترك الدعوة إلى التحذير من متابعة أمم الكفر والكشف عن مخاطره الجسيمة ، يكفى أن يكون منها : متابعة الناس بغير برهان ، والخروج من ذاتيتنا ومقوماتنا .

Scanned with CamScanner

قال عبد الله بن مسعود - ﷺ - :" انتم اشبه الأمم ببني إسرائيل سمتا وهديا تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة غير أني لا أدرى أتعبدون العجل أم لا ؟

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : " ما اشبه الليلة بالبارحة ؟ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم " (١)

- إن الأمة حققت تميزها واستقلالها واعتزازها باصالتها فترة زاهية من الزمن نأت خلالها عن خطط الكيد والتقليد والتأرجح .

وهى اليوم وغداً جديرة بأن تعود سيرتها الأولى ، يساعدها على ذلك :

- استمساكها بالوحى ، والاعتصام به ، والثبات عليه .
- إدراكها لمخاطر وأضرار التبعية والإمعية والتى منها :

- أنها تقود الأمة إلى الامتزاج فى الأخلاق والأعمال .

- إنها ربما قادت إلى حالة من الردة ، والهلاك والتشعب.

- الانسلاخ عن الجماعة المسلمة ، والانخراط فى سلك الأمم الكافرة .

- الخروج عن ذاتيتنا ومقومات وجودنا .

١- اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٨،٢٧.

Scanned with CamScanner

المبحث الثاني
من مظاهر عناية السُّنَّة بالوحدة المنهجية للأمة

Scanned with CamScanner
تم تحويل بواسطة CamScanner

أ - يعيش المنهج الإسلامى الآن غربة ما بعدها غربة ، وإن كانت الغربة صفته عند البدء ، فهى الحال التى بدأ عليها ، وتعتريه الآن ، وإن كانت أعتى وأشد من الأولى .

فقد طالت وامتدت لأمد بعيد ، وعمت لتصل كل أمر ومكان ، ورغم هذا فسيعقبها بأمر الله قوة ، وسيطرة ، ومدا عظيما يبلغ مداه الليل والنهار .

" ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر " (١) .

ومن حديث ثوبان - النبوى - ﷺ - أن النبى - ﷺ - قال :" ***إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها ، وأعطيت الكنزين : الأحمر والأصفر ...*** " (٢) .

المنهج إذاً قادم ، والمستقبل بوعد الله له .

ولابد من تمهيد الطريق ، وإدراك عظمة ما منحنا الله وأكرمنا به وأن ندرك أننا قبل غيرنا عقبة فى سبيل العودة ، بارتدائنا لأردية اليأس والخمول ، والانهزام النفسى .

لابد وأن يعقب الغربة الحالية ما أعقب الأولى .

١- الحديث تقدم تخريجه فى المقدمة .

٢- الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب الفتن ٢٢١٥/٤ وأخرجه أبو داود فى سننه : كتاب الفتن ٩٧/٤ ، وأحمد فى مسنده ٢٧٨/٥ ، ٢٨٤ ، والترمذى فى سننه : كتاب الفتن ٤٧٢/٤ ، وابن ماجه فى سننه ، كتاب الفتن ١٣٠٤/٢ ، وأورده الهيثمى فى المجمع ، كتاب الفتن ٢٢١/٧ ، وعزاه إلى أحمد ، والبزار ، وقال : رجال أحمد رجال الصحيح ، وكلهم من رواية ثوبان ، والحديث قال عنه الترمذى : حسن صحيح

Scanned with CamScanner

أن تغمرنا حالة من الأمل الموزون .

الوعد بالتمكين والاستخلاف فى الأرض .

وعد الله بنصر المؤمنين والدفاع عنهم ، والولاية لهم ، ، وأحاديث الرسول - ﷺ - ومنها ما تقدم ، وغيرها كثير .

نن الله فى كونه - تلك التى لا تتخلف .

تاريخ ... كل هذا شاهد ، قاطع بالعودة الميمونة ، وأن الله لن يخزى أمة الإسلام كما ثبت فى السنة .

لن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح أخرها " (١) .

بدايته نبى كريم من أولى العزم ، ونهايته كذلك .

فيما بين البدء والختام حقوق وواجبات ، وحقائق ثابتة ن لا تغيب ، بل إن وقائع الأيام لتؤكدها ، أن العرب جنس ، أن يكون له وجود إلا على أساس منهج ، نبوة ، دين ، ذا لم يكونوا به فلن يكونوا ، والمنهج لن يتوقف فى قيامه ، بل يمكن أن يكون بغيرهم .

الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا ﴾ القتال /٣٨ .

ن عملية الاستبدال هذه أثارت الشعور النبوى - فقال :" والله ر العرب إن لم تقوموا بما جاء به نبيكم - ﷺ - لغيركم من حرى أن لا يقوم به " (١) .

ابن حجر فى الفتح ٦/٧ ، وعزاه لابن أبى شيبة فى مصنفه من حديث عبد الرحمن بن بإسناد حسن .

Scanned with CamScanner

ب- وحدة المنهج ، أمر قائم علي وحدة الفكر ، القلب ، الضمير ، التوجه ، التلقي ، المصدر ، التنفيذ .

ومظاهر حفاظ السنة عليه قد تحقق من خلالها بأمور . منها توفير الضروريات والحاجيات التي لابد منها ، ولا غنى عنها ، وذلك بتوفير كل ما يحفظ له قوامه ويثبت دعائمه وقواعده .

هذا من ناحية ، وهو أمر إيجابي .

ومن ناحية بدرء عوامل الخلل والضعف ، وسائر المؤثرات التي قد تطرأ علي أجهزة الاستقبال عند الأنسان باعتباره المستقبل الأول من المنهج ، والمتعامل معه .

والمنهج كله إنما أنزل ، وأعدت له الرسل لأجل الإنسان .

وهذا أمر سلب .

ويجمع بين هذا الإيجاب والسلب . ما يمكن إدراجه تحت الأوامر والنواهي . وهما معاً موضوع العاملين التاليين :

أ – النواهي – درء مفاسد .

ب – الأوامر – جلب مصالح .

١- جزء من حديث طويل ، اخرجه ابو داود فى سننه : كتاب السنة ١٩٨/٤ ، والدارمى فى سننه : كتاب السير ٢٤١/٢ ، احمد فى مسنده ١٠٢/٤ ، واللفظ له ، وابن أبى عاصم فى السنة ٧/١ ، ٣٣/١ ، والحاكم فى مستدركه : كتاب العلم ، وقال : ولحديث أبى هريرة وهذه أسانيد تقوم بها الحجة فى تصحيح هذا الحديث ، واقره الذهبى ١٢٨/١ ، وأورده ابن تيمية فى : اقتضاء الصراط المستقيم /٣٢ وقال : هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو ، وعن الأزهر بن عبد الله ، وعن أبى عامر عبد الله بن يحى ، عن معاوية ، ورواه عنه غير واحد .

Scanned with CamScanner

١. الدواهي :

تلك التي حذرت منها السنة .

ومن أهمها :

١- رفض السنة للأفكار والثقافات الوافدة والدخيلة على الإسلام وأهله رغبة من النبي - ﷺ - في أن يقتصر تلقي الأمة علي مصدر واحد ، ففي التعدد تعدد لمصادر التوجيه والتكوين .

هذا الرفض صدر بإصرار ، وكان عاما شاملا وحاسما أيا كان مصدرها والداعي إليها ، والجالب لها .

وبالتالي أصبح نهجاً عاما وقانوناً سائدا ، خاصة ما يتصل بمجالات العقيدة ، الفكر ، القيم ، فلدى الأمة من ذلك الكثير ، وفي ديننا ما يغنى ويكفي ، ولصلته المباشرة بتحديد معالم الأمة وهويتها .

أما العلم النافع فلا موطن له ، والأمة مدعوة إلى تحصيله ، والبحث عنه فالحكمة ضالة المؤمن .

وقد أكد القرآن هذا الرفض ، وبالغ في التحذير من مخالفته ، واهتمت به السنة ، وعملت علي تعزيزه وتركته أمراً واضحاً جليا بعيداً عن كل غموض أو التباس .

فأهل الكتاب لن يهدونا وقد ضلوا - ولا ينصحك من خان نفسه - قال ﷺ :" لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، وإما

Scanned with CamScanner

أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسي حيا بين أظـهركم ما حل له إلا أن يتبعني " (١) .

ولما أتى عمر - ﷺ - بكتاب كان قد أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه . غضب وقال ﷺ : "*امتهوكون (٢) فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى - ﷺ - كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى* " (٣) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال : " يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذى أنزل على نبيه - ﷺ - أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم " (٤) .

١- الحديث أخرجه أحمد في مسنده ١٠٢/٣ ، وأبوا يعلي فـي مسنده ١٠٢/٤ ، وأورده الهيثمي في المجمع ١٧٣/١، ١٧٤ . وقال : رواه أحمد وأبو يعلي ، والبزار ، وفيه مجالد بن سعيد ، ضعفه أحمد ، ويحي بن سعيد وغيرهما . وأورده كذلك في : علامات النبوة ٢٦٢/٨ . وقال : رواه أحمد ، وقد عنون به البخاري في كتاب الاعتصام ٩/ ١٣٦ من صحيحه ، وقال الحافظ في الفتح ١٣/ ٣٣٤ : هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه احمد وابن أبي شيبة ، والبزار من حديث جابر . ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا .

٢- التهوك : كالتهور ، الوقوع فى الأمر بغير روية ، وقيل : التحير ، النهاية فى غريب الحديث ٢٨٢/٥ .

٣- الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ٣٨٧/٣ ، وقد أورد ابن حجر طرق الحديث معزوة إلى من أخرجها من الأئمة ، وأبان عن علة كل طريق منها ، وقال: رجاله موثقون . فتح البارى ٣٤٤/١٣ .

٤- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الشهادات ١٣٧/٣ ، موقوفا على ابن عباس ، وفى كتاب الاعتصام ١٣٦/٩، وأورده ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ٤٢/٢، ٤٣ .

Scanned with CamScanner

وقال ابن مسعود ﷺ : " لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم ، فتكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل " (١) .

وهذا - لأن شريعة الإسلام بيضاء نقية ، وفي سؤالهم تكدير لنقائها ، وتعكير لصفائها .

أو لما في سؤالهم من تكذيب لحق ، أو تصديق لباطل ، وهو أيضاً اعتداء على المنهج وخلط للمفاهيم .

ولأنهم بدلوا وغيروا ، فلم يكونوا أمناء ، فكيف نلتمس منهم هداية ؟

ولأن ما بأيديهم من الباطل أضعاف أضعاف حقه ، وحقه مشكوك فيه ، فالثقة بهم مفقودة .

ثم إنهم بضلالهم يحبون أن الناس كذلك ، هم يخطئون ويحبون أن الناس قد أخطئوا ، ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ النساء /٨٩ .

ولماذا نطلب ما عندهم على باطله ، ولا يطلبون ما عندنا على حقه ؟

وكما ورد النهي عن سؤالهم ، ورد كذلك التوقف فيما يبلغنا من أخبارهم ، حتى يتبين وجهه ، فعن أبي هريرة - ﷺ - قال :" كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :"***لا تصدقوا أهل الكتاب ولا***

١- الحديث أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم ٤٢/٢ ، وابن حجر في الفتح ١٣ /٣٣٤ وقال : أخرجه سفيان الثوري من هذا الوجه وإسناده حسن .

Scanned with CamScanner

تكذبوهم ، وقولوا :﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية . سورة البقرة /١٣٦ (١) .

ولا يتعارض هذا مع ما ورد من نصوص آمرة بسؤالهم ، وجواز الرجوع إليهم ، والاحتكام إلى ما عندهم ، وقوله - ﷺ :

"بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " (٢) .

فإن جواز سؤالهم إنما هو فى بعض الأمور ، وفيما لم تمتد أيديهم إليه ، أو لإقامة الحجة عليهم ، ورجاء هدايتهم ، فإن هم أخرجوا ما عندهم على نحو ما جاء فى القرآن لزمتهم الحجة ، وإن كتموا فقد أخبر الله نبيه بحقيقة الأمر ، وثبت من ثمَّ عنادهم ، ثم إن النبى ﷺ - لن ينخدع فى مظاهرهم ، وقد أمرنا بالتوقف ، والعبرة فى القبول والرد موافقة منهجنا وبما فى أيدينا.

ويمكن حمل النهى عن سؤالهم فى حق من خيف عليه الالتباس ، وجره ذلك للشك والفتنة ، أو أن النهى كان أول الأمر ، وقبل استقرار أحكام الشرع .

وقواعد المنهج ، أو النهى فيما لا نص فيه .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التفسير ٢٥٦/٦ ، واعتصام ١٣٦/٩ ، وتوحيد ١٣١/٩ .

٢- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأنبياء ٢٠٧/٤ ، وهذا لفظه ، والترمذى فى سننه ، كتاب العلم ٤٠/٥ ، والدارمى فى سننه ، مقدمة ١ /١٣٦ وأحمد فى مسنده ١٥٩/٢ ، وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان ٥١/٨ ، والبغوى فى شرح السنة ، كتاب العلم ٢٤٣/١ ، والقاضى عياض فى الالماع /١١ ، وابن عبد البر فى الجامع ٤٠/٢

Scanned with CamScanner
ب CamScanner

قال ابن بطال [١] عن المهلب [٢] " هذا النهى إنما هو فى سؤالهم عما لا نص فيه ؛ لأن شرعنا مكتف بنفسه ، فإذا لم يوجد نص ففى النظر والاستدلال غنى " [٣] .

أو النهى عن سؤالهم فى الأخبار المكذبة لشرعنا ، أو أن النهى وارد فى حق من لم يؤمن منهم ، أو هو خوف التهوك ؟؟

وما دام الأمر كذلك فالواجب الكف عن سؤالهم ،وذلك أن العلة دائرة مع معلولها ، وكان النهى لسبب مما تقدم ، والأسباب قائمة ، والأحكام وإن استقرت نزولاً وتدويناً فإنها لم تستقر فى ضمير أبناء الأمة بعد ، والتخوف من الفتنة ، والالتباس فى أيامنا ألزم .

ثم إن تنوع مصادر التوجية تؤدى إلى بلبلة الفكر ، وضياع معالم الفرد ، فالذى يستقى من جهة واحدة ينعم بالراحة والاستقامة ، وفى ذلك تجميع لطاقته ، ولا كذلك الموزع بين مناهج شتى .

قال الله تعالى : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾

يوسف /٣٩ .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

الزمر /٢٩ .

١- ابن بطال / على بن خلف شارح صحيح البخارى " ٤٤٩هـ " له ترجمة فى : سير أعلام النبلاء ٤٧/١٨ .

٢- المهلب بن أحمد بن أبى صفرة - مصنف شرح صحيح البخارى - أحد الأئمة الفصحاء " ت٤٣٥هـ " له ترجمة فى سير أعلام النبلاء ٥٧٩/٧ ، شذرات الذهب ٢٥٥/٣ .

٣- فتح البارى ٣٣٤/١٣ .

Scanned with CamScanner
يمكن تحويل هذا المستند بـ CamScanner

إنه التهوك والتحير بين المناهج الجائرة ، وهو ما أغضب النبى ﷺ - هذا التهوك الذى جر الأمة إلى سلسلة من المتاهات والضلالات وتسرب إلى أعز ما لدينا ، إذ امتلأت به كتب التفسير ، ونفذ إلى بحوث العقيدة والحديث ... ولم يتوقف بل تعدى إلى مناهج التاريخ لتفقد الأمة صوابها وثقتها بزعمائها .

وكان من نتائج ذلك :

الخلط بين الحقائق والأباطيل .

تضخيم المفاهيم المخالفة للإسلام والترويج للمذاهب الهدامة .

تصويرهم لعقيدة الإسلام بأنها تؤدى إلى الحيرة والحط من قيمة الإنسان.

فسروا الزكاة بأنها من أصل شيطانى نجس .

والجهاد اعتداء أعطاه الإسلام صفة الشرعية .

والديانة المحمدية بصفة عامة جذام ، ومرض وجنون لا يفيق الأنسان منه إلا ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمر . وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين [١]

وأخيراً فإن عملية الاستيراد إنما يقوم بها المحتاج ولدى الأمة رصيد هائل . عملية نقل الثقافات كان يجب أن تخضع لموازين دقيقة ، وهى عندي أهم من نقل الدم للجسم المحتاج . وما كل جسم يقابل لكل دم إنها في عالم المادة عملية معقدة ، وفي عالم المعاني أشد تعقيداً .

---

١ - الفكر الإسلامي / ٤٩- ٦٢.

Scanned with CamScanner

إن عملية الاستيراد باتت جزءا من واقع الأمة ، وهي المرة الأولى التي يتم من خلالها استيراد الأنظمة . وإن أخذت من قبل ما احتاجت إليه وهي محكومة بأمرين :

شعورها بالعلو الإيماني ، وأنها تأخذ بضاعة ممن يملكها دون خضوع روحي له . أو إكبار .

إن الامة لم تأخذ كل شيء ، إنما أخذت ما كانت محتاجة إلية ، وحين أخذت لم تأخذ مبادئ وقيما .

والله تعالي يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت / ٥١ .

٢ – اجتناب أصحاب البدع والأهواء.

للبدع والأهواء تاريخ قديم ، بدأ منذ هبت رياح الفرق ، ونمت بزيادة الاغترار بالتهوك .

وقد ظهرت بوادرها الأولي في عصر النبوة ، وكان لحكمة النبي – ﷺ - الأثر الطيب في القضاء عليها . وإن لم تكن شكلت ظاهرة لافتة للنظر .

ولما ظهرت حركة الردة كأخطر ظاهرة ابتداعية كان موقف الصديق حاسما جازما ، فلم يتردد في المواجهة ، ووقي الله الأمة شرها . كذلك لم يتردد الأمير عمر - رضي الله عنه - في ضرب المبتدعة ونفيهم وأمر الناس بهجرهم .[1]

---

[1] - انظر صنيع سيدنا عمر - رضي الله عنه - صبيغ بن عسل - سنن الدرامى ١/ ٥٥ - الاعتصام ٢ / ١٧٥

Scanned with CamScanner

ويمكن القول بأن عصر الصديق والفاروق كان امتدادا لعصر النبوة ، فلما كانت خلافة الأمير عثمان - ﷺ - بدأ التشويش ، وبمقتله ظهرت الفرق وتعددت الطوائف المنتمية إلي الإسلام ، وكشفت البدع بشكل سافر عن وجهها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله " كان مقتل عثمان ﷺ - أول افتراق المسلمين وابتداعهم ..."[١] .

تعريف البدعة .

بدع : الباء ، والدال . والعين = أصلان

إحداهما : يدل علي ابتداع الشيء وصنعه لاعلي مثال .

الثاني : تدل علي الانقطاع والكلال [٢] .

وعلي الأول فكل ما أحدث علي غير اقتداء - بدعة .

وفي الإصلاح : فيها أكثر من تعريف ، ولا تخلوا من مأخذ .

فمنها أنها فعل ما لم يعهد زمن الرسول - ﷺ - .[٣]

وفيه توسيع إذا لم يفرق ما بين فعل ديني وغيره .

لذا فقد قيد الشاطبي [٤] البدعة بالمخترع المخالف للسنة ، طريقة في الدين مخترعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالي [٥] .

١- مجموع الفتاوى ١٣ / ٢٠٨ - ٢١٣ .
٢- معجم مقاييس اللغة ٢٠٩/١.
٣- قواعد الأحكام ٢٠٤/٢.
٤- الشاطبي : إبراهيم بن موسي بن محمد "ت ٧٩٠ هـ" إمام بارع ، له ترجمة في معجم المؤلفين ١/ ١١٨ .
٥- الاعتصام ١ /٤٧ .

Scanned with CamScanner
تم تحويل بواسطة CamScanner

ومعني هذا أن كل محدث باسم الدين قصد به التقرب إلي الله تعالي = بدعة وعليه فما اخترع للدنيا ليس كذلك فلا تدخل العادات .

لذا قال الشاطبى : " فقد تبين بهذا القيد أن البدع لا تدخل في العادات ، فكل ما اخترع من الطرق في الدين مما يضاهي المشروع ، ولم يقصد به التعبد فقد خرج عن هذه التسمية " [1] .

وعند ابن رجب [2] ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه [3]

إذاً فكل ما له أصل في الشرع لا يدخل في مفهومها الشرعي وإن دخل في اللغوي ، فهي كل جديد لا دليل عليه من الدين .

والبدعة أنواع : منها الصغرى والكبرى ، ومنها المكفرة وغيرها . وللعلماء في البدع وأصحابها أقوال وأحكام .

تعريف الهوى .

واشتقاقه من الهوى : السقوط من مكان مرتفع ، وهو هكذا ؛ لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلي كل داهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية .

ويراد به : محبة الإنسان للشيء وغلبته علي قلبه.

والهوى : الإرادة والشهوة .

١- نفسه ٣٧/١ ، ٤٢ .

٢- ابن رجب : عبد الرحمن بن احمد " ٧٣٦- ٧٩٥هـ " له ترجمة في : طبقات الحفاظ / ٥٤٠ .

٣- جامع العلوم والحكم / ٢٥٢

Scanned with CamScanner

ويطلق العلماء علي أهل البدع : أهل الأهواء ؛ لأنهم تبعوا أهواءهم ، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها ، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم ، واعتمدوا علي آرائهم .

وفي هذا دليل علي التقارن بين الأهواء والبدع ، وعلي أن نتيجتهما واحدة .

فأهل البدع والتفرق المخالفين للكتاب والسنة هم أهل الأهواء ، حيث قبلوا ما أحبوه ، وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله . (١)

ويجمع بين البدع والأهواء أمور ، منها :

توسيع دوائر الاختلاف وتطوير أسبابه .

التنازع .

الصد عن الحق .

فليس الذى يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذى يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق في غيرها ، وإنما هو وضع الذات في كفة والحق في كفة وترجيح الذات علي الحق ابتداء . (٢)

والهوى اسر وقيد : - ما ذكره الله – تعالي- في كتابه إلا ذمه .

ولقد أجاد الشاطبى حين قال : وتأمل فكل موضع ذكر الله فيه

١- نقض المنطق / ٥٤ .
٢- في ظلال القرآن ١٥٢٨/١ .

Scanned with CamScanner
ممكن تحويل ا ب CamScanner

الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : " ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه " (١)

أصول البدع

عدها يوسف بن أسباط (٢) أربعة :

الروافض ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة (٣)

وعند غيره ستة ، وقيل : ثمانية بزيادة : المعتزلة والنجارية ، والجبرية ، والمشبهة ، والناجية (٤)

والحق فإنها أكثر من هذا وحصرها عسير ، وفيه تكلف ، والحديث الوارد بشأن افتراق الأمة حصرها فى أكثر من هذا ، على أنه لم يحدد وقتاً معيناً لتوقف ظهور البدع وأصحابها ، آية ذلك شهود هذا العصر قيام فرق لم تدخل فى حصر العلماء السابقين ، معنى هذا : قابلية ميلاد فرق جديدة .

أسباب البدع

للبدع نطاق انطلاق وتتابع ، ولها كذلك غايات ونتائج ، يكفى أن يكون منها : الانحراف عن الجادة ، هذا الانحراف له أسباب وبواعث ، ترجع فى جملتها إلى كل ما يؤدى إلى الضلال والإضلال ، والاهتزاز وعدم الاستقرار ، ومنها :

١- الموافقات ٢/ ١٧٠ .

٢- يوسف بن اسباط بن واصل ، من سادات المشايخ " ت ١٩٥هـ " له ترجمة في الجرح والتعديل ٢١٨/٩ ، الحلية ٢٣٧/٨ ، ميزان الاعتدال ٤/ ٤٦٢ ، سير أعلام النبلاء ١٦٩١٩

٣- السنة لابن أبى عاصم ٢٢٠/٢ .

٤- الاعتصام ٢٠٦/٢ .

Scanned with CamScanner

أ- تصدر الأحداث وتعجلهم ، وتصديهم لمنصب الريادة والتوجيه ، قبل النضج واكتمال الأخذ ، فما يفسده المتعجل أكثر مما يصلحه ، وفى الاستعجال حرمان ، بل هو قرينه ، ومتى تصدر الحدث فاته خير كثير وسرب الضلال إلى من وثق به ، وفى ذلك اعتداء على المنهج .

وفى الحديث :" إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا بغير علم فضلوا وأضلوا " (١) .

فانظر كيفية تسريب الضلال والإضلال .

وسداً لهذا الباب قال سيدنا عمر رضي الله عنه :

" تفقهوا قبل أن تسودوا " (٢) فإذا لم يكن تفقه قبل التصدى ، ونضج واكتمال قبل التصدر وقعت الفتن ، ومنها ما يلحق بداية بصاحبها ، إذ لم يزل فى ذل ما بقى ، ولا فتنة أضر على المنهج من فتنة التصدى قبل النضج ، وهى الرياسة النذلة .

الرياسة فى الدين بلا دراية رياسة نذلة ، وتقول على الله - تعالى - بما لم يقل ، ولهذا كله صلته بالمنهج ، وهدم له .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب العلم ٣٦/١ ، واعتصام ١٢٣/٩ ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب العلم ٢٠٥٨/٤ ، والترمذى فى سننه ، كتاب العلم ٣١/٥ ، وابن ماجه فى سننه ، مقدمة ٧٧/١ ، والدارمى فى سننه ٧٧/١ ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١٤٩/١ .

٢- أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب العلم ٢٨/١ ، والدارمى فى سننه ٧٨/١ موقوفا على سيدنا على رضي الله عنه - أيضا .

Scanned with CamScanner

قال الله - تعالى:- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة الآية ١٦٨، ١٦٩ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف /٣٣ .

لهذا فقد كان أئمة السلف يحترزون من الفتوى ، ويرون أن جنة العالم " لا أدرى " وأن من اخطأ " لا أدرى " أصيبت مقاتلة .

كيف ؟

أخبر بن عباس ﷺ أن رجلاً أجنب ، فسأل ، فأمر بالغسل فمات ، فذكر ذلك للنبى - ﷺ فقال :" ***مالهم ؟ قتلوه ؟ قتلهم الله ؟ - ثلاثاً قد جعل الله الصعيد ، أو التيمم طهورا*** " [١] .

فانظر خطورة الإقدام على الفتوى بغير علم وما أدت إليه للمفتى والمستفتى . قال عمر ﷺ لزياد بن حدير [٢] " هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قال : قلت : لا . قال : يهدم

---

١. الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ١٢٥/١ ، وابن ماجه فى سننه ١٨٩/١ ، وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان ٣٠٤/١ ، وموارد /٧٦ ، وابن خزيمه فى صحيحه ١٣٨/١ ، والحاكم فى مستدركه ١٦٥/١ ، والدارقطنى فى سننه ١٩٠/١ ، واللفظ لابن حبان ، والحديث ضعفه البوصيرى للانقطاع ، إذ هو من إرسال عطاء ، مصباح الزجاجة ١٣٧/١

٢. زياد بن حدير الأسدى ، له ذكر فى الصحيح ، تهذيب التهذيب ٢٦١/٣ .

Scanned with CamScanner

الإسلام ذلة عالم ، وجدال منافق ، وحكم الأئمة المضلين " (١) .

ب - ومن أسباب البدع : الجهل بقانون الرواية وكيفية التعامل مع السنة مما ترتب عليه من خلط وعدم تمييز بين المقبول والمردود ، واعتماد على الضعيف ، وربما الموضوع فى الاستدلال ، مما قد يسبب نفرة وعدم انسجام مع مصادر الشرع .

والعلماء وإن قبلوا الضعيف بشروطه ، فقد اتفقوا على إهدار الموضوع ، لما له من أثر سيء على الأمة من حيث الترويج للبدع ، ومناصرة الفرق الإبتداعية .

ومن عجب أن يتزامن ظهور الفرق مع ولادة " الموضوع " .

ومن عجب أن يكون من الأسباب الحاملة على الوضع "العداء للإسلام " .

قال الشاطبى :" كل خارج عن السنة ممن يدعى الدخول فيها والكون من أهلها لا بد له من تكلف الاستدلال بأدلتها على خصومات مسائلهم ، وإلا كذب اطراحها دعواهم " (٢) .

ومن مخاطر الجهل بقانون الرواية : رد الصحيح وليس رده بأقل خطرا من قبول الموضوع ، والموضوع وإن

١- الزهد لابن المبارك /٥٢٠ .
٢- الاعتصام ١/٢٢٠ .

Scanned with CamScanner

أدخل فى المنهج ما ليس منه ، فرد الصحيح إخراج منه ، ما هو منه .

وأصحاب التوجه الابتداعى قديما وحديثا لهم موقف من العديد من مسائل العقيدة ، والحديث وأهله ، إذ يرمونهم بحمل الكذب ، ورواية المتناقض ... وهكذا .

جـ - إتباع المتشابه :

وأصله : التماثل . كل أمر التبس بغيره لدخوله فيه .

ومنشؤه : من الفهم الفاسد ، والنقل الكاذب ، والجهل بمقاصد الشرع .

أو من خفاء الدلالة ، وعدم الاهتداء إليها ، ولو لم تكن كذلك ، وربما من الران الذى يعلو القلب فيضعف بصيرته .

أو الطمع ، والمرض ، وكل ما من شأنه ، أن يحجب الرؤيا .

أو بسبب قلة العلم وغلبة الجهل ، لاسيما مع فساد القصد وسيطرة الأهواء ، والعجز عن اكتساب آلة الاجتهاد والتحصيل.

ويجمع هذا كله .

عمى البصيرة وفساد الإرادة .

لهذا حذر الله تعالى - من اتباعه .

قال الله - تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

Scanned with CamScanner
يحيى عوض ... CamScanner

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ... ﴾

الآية آل عمران /٧ .

فأهل الزيغ القلبى هم رواده ، ولا هدف إلا رد المؤمنين عن المنهج ، الباب الذى خرجوا منه إلى ما هم عليه .

ففى الآية دليل على ذم المتشابه لوصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة ، وقد ثبت تحذير السنة من هذا الصنف .

روت أم المؤمنين - عائشة - ﷺ قالت : " تلا رسول الله - ﷺ هذه الآية ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ... ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ ***فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم*** " (١)

وقالت أيضاً " فقال يا عائشة "***إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم*** " (٢) .

فجعل علامة زيغ القلب : الجدال والمراء في القرآن . وهو كفر.

كل هؤلاء يجمعهم وصف واحد هو : الاعراض عن الحق ، ويسعهم جميعاً الوصف بالزيغ .

قال ابن القيم (١) :" وهذه الفتنة مآلها الكفر والنفاق ، وهى فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم ،

١- الحديث أخرجه البخارى في صحيحه " كتاب التفسير ٤٢/٦ ، ومسلم في صحيحه ، علم ٤/ ٢٠٥٣ .وأبو داود في سننه ، سنة ٤/ ١٩٨ ، الترمذى في سننه . تفسير ٥/ ٢٢٢ ، والدارمى في سننه ، مقدمة ١/ ٥٤ ، وأحمد في مسنده ٦/ ١٢٤ ، ١٣٢ ، والبغوى في شرح السنة ٢٢/١ .

٢- الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ، مقدمة ١٨/١ ، وأحمد في سنده ٤٨/٦ .

Scanned with CamScanner

...يهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي التبست عليهم فيها ...ق بالباطل والهوى بالضلال " (١) وفساد المنهج إنما يقع ...عتقاد باطل ، أو بالعمل بخلاف الحق .

...الاعتماد علي الرأي وتقديمه علي النص .

...س الرأي دينا ولا علما ، وإن كان فهو أضعف أنواع العلم

...ال ابن عبد البر (٣) : " ولا أعلم بين متقدمي علماء هذه الأمة ...سلفها خلافا أن الرأي ليس بعلم حقيقية " (٤)

...علماء الأمة علي اتهام الراي دوما ، فاهل الراي أعداء السنن.

...ال عمر ﷺ : " أصبح أهل الرأي أعداء السنن ، أعيتهم ان ...وها ، وتفلتت منهم أن يرووها ، فاستبقوها بالراي " .

" أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث ان يحفظوها ، وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا ان يقولوا : لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم ، فإياكم وإياهم " فقالوا بالرأى فضلوا وأضلوا " .

...ال ابن القيم : " وأسانيد هذه الآثار عن عمر فى غاية الصحة " (٥) .

---

١. محمد بن أبي بكر بن أيوب " ٦٩١-٧٥١هـ" إمام بارع له ترجمة في : البداية والنهاية ٢٣٤/١٤ ، زيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٤٧ وطبقات الداودى ٩٣/٢ .

١. إغاثة اللهفان ١٦٥/٢ .

٢. ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله بن محمد " ٣٦٨- ٤٦٤هـ" له نرجمه في : وفيات الأعيان ٦٦/٧، تذكرة الحفاظ١١٢٨/٣، سير أعلام النبلاء١٥٣/١٨ ، شذرات الذهب ٣١٤/٣ .

٤. جامع بيان العلم وفضله ٣٣/٢ .

٥. أعلام الموقعين ٥٤/١ وانظر جامع بيان العلم وفضله ١٣٤/٢ ، ١٣٥ .

Scanned with CamScanner

والأراء بداية الضلال والإضلال .

والأمور تظل مستقيمة ما دام الناس على الأثر ، فإن تركوه هلكوا .

وقد كانوا يرون أنهم على الطريق ما داموا على الأثر .

والنصوص فى ذم الرأى المذموم ، وتهيب السلف منه ، وبيان أضراره ومزاحمته للمنهج أكثر من أن تحصى .

- وأخيراً . مجمل ضالات أصحاب البدع والأهواء .

- إن الدارس لتاريخ الحركات الابتداعية يقف على جذورها الأولى ، وصلتها بالفكر الوافد ، ودور اليهودية والسبئية فى إيجادها ، وما بين البدع والفرق ، وبداية الفتن والغارة على الحديث والمحدثين ، ودوافع ذلك كله ونتائجه .

- أصول البدع وإن حصرها بعض الأئمة فى عدد معين ، فإن إنزال الحديث الوارد فيها أمر لا يخلو من التكلف وبعد عن الواقع .

أسباب البدع كثيرة ومنها :

تصدر الأحداث . الجهل بقانون الرواية ، اتباع المتشابه ، الاعتماد على الرأى وتقديمه على النص .

- الواجب تجاه أصحاب البدع ، أن نحذرهم ، وبه كانت وصية النبى - ﷺ - حراسة الدين ، لإبطال البدع ، ورد أقوال المبتدعة وعدم مجالستهم ، والاستماع إليهم ، أو الرواية عنهم إهانة لهم . فهم أعداء السنن .

Scanned with CamScanner

وهذا كله بسبب جنايتهم على المنهج ، وإفسادهم فيه ، وخروجهم عليه . وإن كان فى حقيقته يتنوع بتنوع البدع ، فما كل بدعة يصدق عليها كل أمر من هذه الأمور ، وإنما العقوبة بمقدار الفساد .

٢- البعد عن الأسباب الجالبة للاختلاف المذموم.

فقد عابه الله - تعالى - على الأمم قبلنا . وكل ما كان كذلك فالمسلمون أولى بالتنزه عنه قال الله تعالى ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران /١٠٥ .

تعريف الاختلاف

مجيء الشيء بعد الشيء ليقوم مقامه .

واختلف الناس فى كذا ، والناس خلفة ومختلفون . إذا نحى كل واحد قول صاحبه ، وأقام نفسه مقام الذى نحاه [١] والخلاف : المضادة ، وقد خالفه مخالفة وخلافا، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وتخالف الأمران إذا اختلف ولم يتفقا ، وكل ما لم يتساو فقد تخالف [٢] فإذا أخذ كل واحد طريقاً غير طريق الثانى ولم يتفقا فقد اختلفا . ولأنه يفضى إلى التنازع فقد عمل الإسلام على سد أبوابه وإلغاء كل مظاهره ودواعيه ولو فى الشكل ، وحذر من الأسباب المؤدية إليه ؛ لأنه قد يؤدى إلى جحد ما عليه الآخر وهو حق ، أو ضرب النصوص ببعضها .

١- معجم مقاييس اللغة ٢/٢٠٠ ، ٢١١ .
٢- المفردات / ١٥٦ .

Scanned with CamScanner

وهذا فى ذاته اعتداء أثيم على المنهج أن يجحد حقه ، أو يصير به إلى الشك فيه ، أو أن تضرب نصوصه ببعضها ، فذلك كله نوع كفر .

قال الله - تعالى:﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ الحج/٥٥

وقال - ﷺ "***لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض***" (١) .

فتكونوا بذلك مضاهين للكفار ؛ فإن الكفار متعادون يضرب بعضهم رقاب بعض . والمسلمون متآخون يحقن بعضهم دماء بعض (٢) .

وفى المعنى أقوال أخرى . بيد أن فى تراجم الأئمة للحديث وورود ألفاظ مثل " لا ترتدوا ... " " ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا " تؤذن بهجمة على المنهج واعتداء عليه ، وانسلاخ لا قدر الله - تعالى - منه .

كما أبانت نصوص السنة عن آفات الاختلاف ، وأنه أحد أهم عوامل هلاك الأمم السابقة .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه - فى عدة أماكن ، علم ٤١/١ ، وديات ٣/٩ ، فتن ٦٣/٩ ، ومغازى ٢٢٤/٥ ، أدب ٤٨/٨ ، وحدود ١٩٨/٨ بلفظ " لا ترتدوا بعدى كفارا ... " وأضاحى ٣٠/٧ ، وتوحيد ١٦٣/٩ ، وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان ٨١/١ ، وقسامة ١٣٠٥/٣ ، وأبو داود فى سننه ، كتاب السنة ٢٢١/٤ ، وابن ماجه فى سننه ١٣٠٠/٢ ، والدارمى فى سننه ٦٩/٢ ، وأحمد فى مسنده ٣٠/١ ، وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان ٢٠٥/١ ، والبغوى فى شرح السنة ٢٢١/١ .

٢- معالم السنن ٥٢/٧ .

Scanned with CamScanner

"*إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم*" [١] وسبب ذلك - الله أعلم - ما يسببه الأمران من عدم إجلال وتوقير للنبى - ﷺ - وتقليل هيبته فى نظر أبناء أمته .

وحين تبلغ الأمور هذا المبلغ فالهلاك هو العلاج .

وقد يكون فى الأسئلة طلب ما لم يقع ، أو القصد منها العنت والمراء ...

إلى غير ذلك وكلها أمور لها صلتها الوثيقة بالمنهج ورمزه القائم عليه ، كما أن الاختلاف وكثرة الأسئلة يجران إلى عدم الطاعة وحسن الانقياد .

كما كشفت نصوص السنة عن أن اختلاف الشكل يوصل إلى اختلاف المضمون ، ومخالفة الظاهر عنوان مخالفة الباطن .

والباطن مستودع القيم ومستقر الحقائق ، ومركز المنهج . وفى الحديث " استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم " [٢] .

والحديث من العلماء من حمله على الحقيقة والمعنى : يوقع بينكم العداوة. والبغضاء . واختلاف القلوب .

١- جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، اعتصام ١١٦/٩ ، ومسلم فى صحيحه ، فضائل ١٨٣٠/٤ ، وحج ٩٧٥/٢ ، والترمذى فى سننه ، علم ٤٧/٥ ، والنسائى فى سننه ، مناسك ١١٠/٥ ، وأحمد فى مسنده ١٩٦/٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٣ ، وابن ماجه فى سننه ، مقدمة ٣/١ ، وابن حبان فى صحيحه - كما فى الإحسان ٢٧٠/٣ .والبغوى فى شرح السنة ١٩٧/١ ، ١٩٩ .

٢- الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، صلاة ٣٢٣/١ ، وأبو داود فى سننه ، صلاة ١٧٨/١ ، والترمذى فى سننه ، صلاة ٤٤٠/١ ، وابن حبان فى صحيحه ٣٠١/٣ ، كما فى الإحسان كلهم من حديث ابن مسعود ، سوى أبى داود فمن رواية البراء بن عازب .

وقيل : تفترقون فيأخذ كل واحد وجه غير الذى أخذ صاحبه ؛ لأن تقدم الشخص على غيره مظنة الكبر المفسد للقلب الداعى إلى القطيعة .

ولأن الاختلاف كذلك فقد هم النبى - ﷺ - أن يقضى عليه ، ويجمع الأمة على كتاب لا ضلال معه ولا اختلاف .

كان هذا عندما حضرته الوفاة ، وفى القوم عمر وابن عباس ، رضى الله عنهم ..... فلما كثر اللغط ، واختلف أهل البيت

قال النبى - ﷺ - " قوموا عنى " فكان ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول " إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - ﷺ - وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم " (١) .

وقد اختلف العلماء فى المراد بهذا الكتاب .

فقيل : أراد أن يكتب لهم كتابا ينص على الأحكام ليرتفع الخلاف .

وقيل : أراد أن يكتب كتابا ينص على أسماء الخلفاء حتى لا يقع بينهم اختلاف .

والأول أظهر لقول عمر ﷺ " كتاب الله حسبنا " مع أنه يشتمل الوجه الثانى لأنه بعض أفراده (٢) .

١- الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب المرضى ١٥٥/٧ ، واعتصام ١٣٧/٩ ، وهذا لفظه ، ومسلم فى صحيحه ، كتاب الوصية ١٢٥٩/١ ، وأحمد فى مسنده ٣٢٤/١ جميعا من حديث ابن عباس .

٢- فتح البارى ٢٠٩/١ .

وأخيرا فإن الخلاف شر . ومن عوامل هلاك الأمم ، لما فيه من بغى وجهل ، وعجز وقلة معرفة بحقيقة الأمر المختلف فيه ، أو بالدليل الذى يرشد إليه أحدهما أو بما مع الآخر من حق ، ولأنه يورث الأهواء والقعود عن العمل . ثم والإسلام دعوة إلى الألفة والترابط والجماعة .

قال الله - تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ... ﴾ آل عمران /١٠٢ - ١٠٣ .

إنه الاعتصام بحبل الله لتحقيق منهج الله ، وبهما قوام الأمة والجماعة المسلمة .

لا بد إذن من جماعة ، ولا بد للجماعة من منهج تؤديه .

هذا - ولا يغيب عن البال أن الاختلاف منه الممدوح والمذموم ولكل خصائص وثمار وآثار ، وفيما قدمت كفاية [١] .

١- أنظر كتابنا " ضوابط الاختلاف فى ميزان السنة " " اختلافات المحدثين والفقهاء فى الحكم على الحديث " ط دار الحديث بالقاهرة .

٨. التحذير من الجمود على الرأى الواحد وحمد ما عداه

والجمود كالجحود وإن اختلف معه فى أن الحامل على الجمود قد يكون الجهل وحسن النية .

وللجمود آثار خطيرة ، فهو فتنة لأعداء الإسلام ، وحجة عليه .

والمسلم الجامد يسعى فى تعطيل المنهج ، والحط عليه من قبل المعادين له .

ويحبب إلى الناس الكسل والبطالة ، والقنوط واليأس من الإصلاح والتغيير ، والتعصب لما معهم وإن كان باطلاً .

والإسلام دعوة إلى التغيير ، والحركة والتيسير ، والمرونة ، والتجديد ... والاعتراف بما مع الآخرين من حق .

والإسلام وإن مقت الخلاف وذمه ونهى عنه ، فما كله كذلك ، فمن الاختلاف ما هو واقع فى دائرة العفو عنه ، والإذن به . وهو الممدوح المحمود الذى هو توسعة ورحمة .

وهذا النوع له أسبابه ، ومنها ما يتعلق بطبيعة النص ، أو بطبيعة العقل المتعامل مع النص ، أو اللغة وهى سيالة ذات أوجه متعددة ... ولهُ كذلك آثاره وثمارُه فهو توسعة ورحمة . كما له خصائصه ، ومنها :

التفاعل ، والمرونة والتغيير ، وأن كل واحد من المختلفيين مصيب ، بل ومأجور على اجتهاده ، لذا امتنع بعض العلماء من تسمية هذا النوع خلافاً ، وإن أطلق عليه الجمهور خطأ كما هو الواقع . إلا أن صاحبه معذور فيه ؛ لأن الخطأ هنا بمعنى عدم

الاهتداء إلى الدليل ، أو إلى وجهه ، لا أنه بمعنى مخالفته للشريعة ولذلك فإن المجتهد مأجور ، ولا يؤجر من خالف الشرع .

إذاً ليس العيب في الخلاف والاختلاف ، إنما العيب في جمود العقل ، وتحجره ، وثباته على رأى واحد لا يقبل معه بدلا ، ولا عنه حولا ، ويزداد الأمر سوءاً حين يجحد المرء ما عداه ولو كان خيراً مما في يده ، وهو عين ما عابه الله - تعالى - على الأمم السابقة .

قال الله - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ الزخرف /٢٣، ٢٤ .

فما منعهم من سلوك سبيل الاهتداء إلا التعلق بالأباء .

أعرضوا عن الهداية ، وتركوا التعلق بحبل الله - تعالي - وتعلقوا بآبائهم وحكمهم على الشرع والمنهج في صورة تقليد أعمى وتعصب بغيض

وهذا هو عين الجمود علي باطله . ورفض منهج النبوة علي حقه .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة /١٧٠ .

وهذا نوع من الانغلاق وفيه سد لمنافذ الهداية . وتصيير المنهج كالعدم بترك الانتفاع به ، ولاجتهاد والنظر فيه .

وله فوق ذلك آفات ومخاطر منها :

التقليد المؤدى إلى تشبث كل إنسان بما عنده ، وفرحه بنا لديه وهو مقيد بقيود الجهل . مصفد بالأهواء وإن كان لا يشعر ، يغالي في تبعيته وولائه لمن يقلده . يرى ضلال مخالفه ويدفع ما معه من حق والتقليد جمود من حيث إنه غلق لباب انفتاح العقل والبصيرة ، وسد لباب النظر والاجتهاد ، والاعتبار والاستدلال .

ومن حيث إنه عكوف علي آراء الآباء والمشايخ وإيثارهم وتقديمهم ففي الأول إعراض عن المنهج ، وفي الثاني اقتحام لما نهي الله – تعالي عنه ورسوله - ﷺ – .

قالي الله – تعالي : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف /٣.

وفي السنة من حديث حذيفة _ ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تكونوا إمعة [١] تقولون أن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤا فلا تظلموا" [٢]

ومن حيث أنه لا يثمر علماً ولا يفضي إلي معرفة ؛ لما فيه من إلغاء دور العقل ، ولهذا أخرج العلماء المقلد من زمرة العلماء [٣] ومن حيث إنه يضعف هيبة الدين وعلماء الشرع في

---

١ - الإمعة : بكسر الهمزة وتشديد الميم الذي لا رأى له ، فهو يتابع كل أحد علي رايه. والهاء للمبالغة . النهاية ٦٧/١ .

٢ - الحديث أخرجة الترمذي في سننه ، كتاب البر ٣٦٤/٤ وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . والبغوى في شرح السنه ، كتاب البر ٣٢/١٣ .

٣- أعلام الموقعين ٧/١ .

عين الناس ، ويقلل من الثقة بهما ، فقد يفتح التقليد باب اللمز والحط علي الإسلام وعلمائه ، من قبل الخارجين عليه فيشوشون بذلك علي العامة .

والتقليد جحود من حيث نزوع المقلد إلي مخالفة الشرع بالتمادي فيه مع ما يظهر من خطئه .

ومن حيث رفضه الاعتراف بما لدى الآخرين من حق ، وقله الإنصاف في العلم ، ففيه إعراض عن الدليل ، ولقد زل بسببه أقوام خرجوا عن الجادة ، واتبعوا أهوائهم ، وتعصبوا لآبائهم فضلوا عن سواء السبيل .

وأكثر الجهل إنما يقع بسبب الجحود في النفي والتكذيب قال شيخ الإسلام ابن تيمه : " لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفه ، ولهذا نهت الأمة أن تضرب آيات الله بعضها ببعض ؛ لأن مضمون الضرب الإيمان بإحدى الآيتين . والكفر بالأخرى إذا اعتقد أن بينهما تضادا ، إذ المتضادان لا يجتمعان " [1] وأبلغ من هذا أنه يحتج علي الجامد بسنة ثابتة عن رسول الله ﷺ - فيردها من غير تمييز مخافة أن تنكسر حجته ، أو يعمد إلي تأويلها وصرفها عن وجهها لتتفق مع رغبته .

الجمود إذاً جحود مداره علي النزاع وتعميق أسباب الخلاف والاختلاف وتوسيع دوائره باتباع الأهواء والابتداع .

منشؤه الجهل والبغي ، والظلم ، يفضي إلي تحكيم الرجال والإعراض عن الدليل من الكتاب والسنة ، إلي التحلل لدفع

---

١ - اقتضاء الصراط المستقيم /٣٥

Scanned with CamScanner

ظواهرهما ، ويتأولهما بأمور بعيدة باطلة نضالا عن موقفه ، ونصرة لمذهبه .

لهذا كثر التحذير منه والنهي عنه . بل لقد أجمع العلماء على إخراج من كان هذا حاله من زمرة العلماء .

قال علي – ﷺ - : " الناس ثلاثة ؛ فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق . لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق "

وقال : " إياكم والاستنان برأي الرجال ، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ثم ينقلب لعلم الله فيه فيعمل بعمل أهل النار فيموت وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيموت وهو من أهل الجنة ، فإن كنتم لا بد فاعلين فبالأموات لا بالأحياء [١] .

وقال ابن مسعود – ﷺ - " ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن أمن أمن ، وإن كفر كفر ، فإنه لا أسوه في الشر [٢] " أغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين ذلك "[٣] وقال : " كنا نعد الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيذهب بغيره وهو فيكم اليوم المحقب[٤] دينه الرجال "

---

١ - أعلام الموقعين ١/٧، ٢/١٩٥ ، جامع بيان العلم وفضله ٢/١١٢ .
٢ - الرد على من أخلد إلى الأرض /١٢٠ .
٣ - جامع بيان العلم ٢/١١٢ .
٤ - المحقب : الذى يقلد دينه لكل أحد ويجعله تبعا لغيره بلا حجه – النهاية ١/٤١٢ .

Scanned with CamScanner
تم تصوير بـ CamScanner

وقال الإمام مالك [١] - رحمه الله - : " إنما أن بشر أخطىء وأصيب فانظروا في رأيي كل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه " [٢]

وقال الإمام الشافعي [٣] - رحمه الله - : " أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله - ﷺ - لم يكن " أن يدعها لقول أحد من الناس "

وقال أبو عمر [٤] وغيره من العلماء. أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم . وأن العلم معرفة الحق بدليله .

قال بن القيم " فقد تضمن هذان الأجماعان إخراج المتعصب بالهوى ، والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء "[٥]

والله تعالى يقول ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ الزمر /١٧، ١٨ .

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ النساء /٥٩ .

فأثني الله علي من يتبعون أحسن الأقوال .

---

١ - مالك بن أنس بن أبي عامر " ٩٣- ١٧٩هـ " له ترجمة في : سير أعلام النبلاء ٤٨/٨ ، تذكرة الحفاظ ٢٠٧/١ ، تهذيب التهذيب ٥/١٠.

٢ - القول المفيد /٥٤ .

٣ - الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن شافع " ١٥٠ - ٢٠٤ هـ " له ترجمة في : طبقات الشيرازي /٧١ ، تاريخ بغداد ٥٦/٢ ، سير أعلام النبلاء ٥/١٠ ، تذكرة الحفاظ ٣٦١/١ ، تهذيب التهذيب ٣٥/٩ .

٤ - أبو عمر ابن عبد البر . تقدم

٥- أعلام الموقعين ٧/١ .

Scanned with CamScanner

ولم يبح عند التنازع الرجوع إلي قول أحد إلا الله ـ لكتابه ـ ولرسوله ـ لسنته ـ بعد وفاته ـ ﷺ - وجعل ذلك من مقتضيات الإيمان . وأخبر سبحانه عن خيرية ذلك وأفضليته .

ولهذا . فإن الحق هو المعتبر دون الرجال ، وصحة الحديث هي المذهب ، والناس دوماً في صلاح ما دام فيهم من يطلب الأثر . وأمر الأمة مستقيم ما داموا علي الأثر . والحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع .

والعلماء في الشريعة إدلاء ، وبهم يعرف الحق .

قال الشاطبي : " إن العالم بالشريعة إذا اتبع في قوله ، وانقاد الناس في حكمه فإنما اتبع من حيث هو عالم بها ، وحاكم بمقتضاها ، لا من جهة أخري فهو في الحقيقة مبلغ عن رسول الله ـ ﷺ - المبلغ عن ربه عز وجل " (١)

هـ - ترك المراء والجدال .

والمراء والإمتراء : المحاجة فيما فيه مرية .

والجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . (٢)

والخلاف بينهما علي هذا لفظي ، إذ يؤول أمرهما إلي شئ واحد ، ولذلك يوردهما العلماء علي سبيل الترادف .

وفي كتاب النهاية ، الجدل : مقابلة الحجة بالحجة . (٣)

١- الاعتصام ٢/٢٥٠ .
١- المفردات /٤٦٧ ، ٨٩ .
٣- النهاية ١/٢٤٧ ، ٤/٣٢٢

Scanned with CamScanner

والمراء : الجدل والتماري والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة ، ويقال للمناظرة : مماراة ؛ لأن كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمتري الحالب اللبن من الضرع . (١)

ويتنوع المراء والجدال إلي نوعين .

١- جدال علي سبيل إظهار الحق ومغالبة أهل الباطل ، ورد الشبهات ، ودحض الأباطيل ، وقهر البدع والأهواء ، وهذا ثابت في الشرع ، وعليه بوب ابن عبد البر في جامعه بابا هو : " إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة " (٢) عززه بنصوص من القرآن والسنة وحوادث الأمة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ سورة البقرة /١١١ .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾

الأنفال /٤٢ .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الأنعام /١٤٩ .

كذلك ما في القرآن من مجادلة الأنبياء لأقوامهم .

وقد جادلَ النبي – ﷺ - أهل الكتاب وباهلهم بعد الحجة . وسورة آل عمران معركة جدلية في شأن عيسى عليه السلام. قال الله – تعالي - :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا ... ﴾

الآية آل عمران /٦١ .

١- النهاية ٢٤٧/١ ، ٣٢٢/٤.

٢ - جامع بيان العلم وفضله ٩٩/٢

Scanned with CamScanner
تم تحويل هذا الملف بـ CamScanner

وفي هذا تعليم من الله لكيفية السؤال والجواب والمجادلة .
وجادل عمر ﷺ اليهود في جبريل وميكائيل .

وجادل علي – وابن عباس – الخوارج .

وجادل عثمان – ﷺ - الخارجين عليه .

ويلتحق بهذا مجادلة أهل الإلحاد ... ولعلماء الأمة قديماً وحديثاً في هذا تطبيقات عملية تفوق الحصر . وهى واجب كل عالم رزقه الله – تعالى – فهما في الدين ، وبعداً في الرأي والفقه .

" كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن قد أعطي الإسلام حقه ، ولا فى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور ، وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين "(١)

ويدخل فيه لمن قدر عليه : مدارسه أهل القرآن ، ومفاتشة أسراره ، واستخراج أحكامه ، فقد تباحث الصحابة فيه وخلفوا وراءهم ثروة طيبة .

كذلك النظر في الأحكام ، وقضايا الفقه ، ورد الفروع علي الأصول .

كل هذا قد عاد علي الأمة بالسعة واليسر . وجلب النفع .

٢- الجدل علي سبيل الجحود والشك .

وهو نوع من الاختلاف المذموم ، لما فيه من جحد ما مع الآخرين من حق ونوع من التقليد والتعصب الأعمى ، لما فيه من

١- الإحكام في أصول الأحكام ٥٤٠/١

Scanned with CamScanner

تعطيل لأ له الفهم والبحث والنظر والاجتهاد .

وذلك كالمماراة في القرآن .

أن يتمارى اثنان في آية يجحدها أحدهما ويدفعها ، أو يذهب فيها إلي الشك والارتياب .

والعلماء علي أن هذا كفر .

قال ابن عبد البر : المراء الذي هو كفر هو الجحود والشك ، كما قال الله عز وجل ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ الحج /٥٥ .

ومن الآثار المروية عن النبي - ﷺ - في هذا قوله فيما رواه أبو هريرة "***مراء بالقرآن كفر***" [١] "نزل القرآن علي سبعة أحرف ، المراء في القرآن كفر - ثلاث مرات - فما عرفتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلي عالمه "[٢]

وقد اختلف العلماء في تحديد المعني المراد:

فقال أبو عبيد [٣] وليس وجه الحديث عندنا علي الاختلاف في التأويل ، ولكنة علي الاختلاف في اللفظ ، وهو أن يقول الرجل علي حرف فيقول الأخر ليس هو هكذا ولكنه علي خلافة ، وكلاهما منزل مقروء به فإذا جحد كل واحد إلي منهما قراءه

١- أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ١٩٩/٤ ، وأحمد في مسنده ٢٨٦/٢ ، ٤٧٥ من حديث أبى هريرة ، والبغوى في شرح السنة ، كتاب العلم ٢٦١/١ ، والحديث حسنة ابن القيم كما في تهذيب السنة ٦/٧ .

٢- الحديث أخرجه أحمد في مسنده ٣٠٠/٢ من حديث أبي هريرة ، وابن حبان في صحيحه ، كما في الإحسان ١٤٩/١ .

٣- ابو عبيد : القاسم بن سلام ، أحد الأئمة الأعلام "١٥٤- ٢٢٢هـ " له ترجمة في تاريخ بغداد ٤٠٣/١٢ ، طبقات الحنابلة ٢٥٩/١ . تذكرة الحفاظ ٤١٧/٢ ، وفيات الأعيان ٦٠/٤ .

Scanned with CamScanner

صاحبه لم يؤمن أن يكون ذلك يخرجه إلي الكفر ؛ لأنه نفي حرف أنزله الله علي نبيه .

وقال الخطابى : اختلف الناس في تأويله ، فقال بعضهم : معنى المراء هنا : الشك فيه ، لقوله تعالي ﴿ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ هود /١٧ .

ويقال : بل المراد هو : الجدال المشكك فيه [١] ومعلوم أن اختلاف أوجه القراءات نوع من الاختلاف الممدوح ، فهو اختلاف تنوع ، وهو والاتفاق سواء ؛ فقد صحت فيه الأدلة ، وذهب كل فريق في العمل إلي دليل منها ، وكل فيه مصيب ولا ينكر ما مع غيره من صواب .

دليله : اختلف بعض الأصحاب في القراءة ، فنهاهم النبي - ﷺ - عن الاختلاف مع إقراره لكل منهم علي قراءته.

قال - ﷺ - كما في حديث ابن مسعود - ﷺ - " كلاكما محسن ولا تختلفوا . فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا "[٢] وإنما نهاهم عن الاختلاف مع تحسينه لقراءتهما ، لما فيه من جحد وإنكار صواب كل منهما لغيره . وإن كان مصيباً فيما أثبته لنفسه .

ويندرج تحت هذا النوع " الجدال علي سبيل الجحود "

اختلاف التضاد ، الناشئ عن الجهل والهوى ، ورفض الحق والتكبر عليه ، الكلام في المسائل التي لم تقع ، والتعمق فيها ، وتكلف ما لا يعنيه ، فعن سعد بن أبى وقاص - ﷺ - عن النبي -

---

١ - معالم السنة ٦/٧ .

٢ - صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ٢١٣/٤ من حديث ابن مسعود

Scanned with CamScanner

ﷺ - قال : "*إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما ما من سأل عن شئ لم يحرم فحرم من أجل مسألته* " [١] والله - تعالي - يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ المائدة /١٠١ .

والمسألة خلافية .

فمن العلماء من لا يرى التعميم في النهى عن كل سؤال . وأنه لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه ، أو مالهم بمعرفته حاجة راهنة .

والذين تعلقوا بالآية في كراهية السؤال عما لم يقع أخذوه بطريق الإلحاق من جهة أن كثرة السؤال لما كان سبباً للتكليف بما يشق فحقها أن تجتنب . [٢] ويرى بعض السلف أن السؤال عما لم يكن نوعاً من تعجل البلاء ، وكان النهى عنه ، وعن ابن عمر - ﷺ - قال :" لا تسألوا عما لم يكن فإنى سمعت عمر - ﷺ - يلعن السائل عما لم يكن " .

وقد ذكر ابن حجر [٣] رحمه الله تعالى - أنواعاً من الأسئلة التي ذمها علماء السلف ، ومنها ما فيه تضييع الوقت بما لا طائل تحته .

١- أخرجه البخاري في صحيحه ، الاعتصام ١١٧/٩ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ١٨٣١/٤ ، وأبو داود في سننه ٢٠/١٤ ، وأحمد في مسنده ١٧٦/١، ١٧٩ جميعاً من حديث سعد بن أبي وقاص .

٢- فتح الباري ٢٦٦/١٣ .

٣ - أحمد بن حجر علي العسقلانى " ٧٧٣/ ٨٥٢ هـ " له ترجمه في ذيل تذكره الحفاظ / ٣٨٠ ، طبقات الحفاظ /٥٥٢ ، شذرات الذهب ٢٧٠/٧ .وقد أفرده السخاوى بمؤلف خاص " الجواهر والدرر " ط المجلس الأعلى .

Scanned with CamScanner

الإكثار من التفريعات على مسائل لا أصل لها في الكتاب ، او السنة ، أو الإجماع .

وهى نادرة الوقوع جدا ، فيصرف في غيرها زمانا كان صرفه فيها أولي ، لاسيما إن لزم من ذلك ما حقه التوسع فيه .

البحث عن الأمور المغيبة التي ورد النص بالإيمان بها مع ترك كيفيتها. ما ليس له شاهد في عالم الحس ، كالسؤال عن وقت الساعة .

ما يوقع كثرة البحث فيه والسؤال عنة في الشك والحيرة . ما يفضى البحث فيه إلي الجواب بالمنع بعد الإذن والإباحة ، أو إلي ما أفضى إلي محذور . (١)

وعليه فمع تفادى هذه الأنواع المذمومة فلا بأس بالسؤال حتى لا يضيع الإنسان علي نفسه علماً أو فهماً ، وإلا فالتوسع في توليد الأسئلة خاصة فيما يندر وقوعه ، وكان الحامل عليها الغلبة والمباهاة ، فمذمومة وهى عين ما رفضه السلف .

والذي يتقرر في هذه المسألة ، وهو ما دلت علية الشواهد والنصوص من الكتاب والسنة ، وعمل سلف الأمة أن كل ما يحمد ، ويصلح للحجة وينتفع به فالاقتصار عليه مطلوب .

وعليه يحمل عمل الفقهاء .

أما ما يؤدى إلي المراء والجدل ، ويولد البغضاء ، ويسمي خصوما وهم أبناء مله واحدة ، فمذموم، ومن عوامل هدم الإسلام،

---

١ - فتح البارى ٢٦٧/١٣ بتصريف

Scanned with CamScanner

وعدم الانقياد للمنهج ومن العلماء ما يرى أن الكراهية لغير العلماء المتفرغين للفقه ، والمتخصصين فيه كالأئمة الأربعة وأمثالهم فقد تعرضوا للفروع وأعطوها حقها وحكمها ، فنفع الله بها الناس .

ومما يدخل فيه : الخوض في المتشابهات ، وكل ما هو غير قاطع في المعنى ، وما ليس بمنضبط في المدلول ، فالكلام فيه قد يوقع في حيرة وشدة ، ثم إنه خوض فيما لا ينبنى عليه عمل ، والأولى تركه ، ولهذا كره السلف الكلام فيه . وحذر النبى - ﷺ - ممن يتبعون المتشابه .

ويندرج تحته الكلام في الصفات ، والقدر ، والغرائب ، والأغلوطات [١]

وكل ما يقصر فهم بعض الناس عنه ، خشيه الوقوع في أشد منه .

وقد أتفق العلماء من أهل السنة علي النهى عن الجدال والخصومات في الصفات ، وعلي الزجر عن الخوض في علم الكلام وتعلمه . [٢]

ونقدم معنا أن من أسباب الابتداع ، إتباع المتشابه . لذا جاء تحذير النبي- ﷺ - منه وممن يتبعونه .

والعلاقة بين اتباع المتشابه والجدال والمراء علي هذا واضحة .

١- **الأغلوطات** : المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها ، فيهيج بذلك شر وفتنه ، وقد وردت السنة بالنهي عنها ، لأنها غير نافعة . النهاية ٣٧/١٣

٢ - شرح السنة ٢١٦/١

Scanned with CamScanner
يمكن تحويل الـ CamScanner

بداية اتباع المتشابه زيغ القلب ، وأمر بدايته هكذا ينتهي ولا بد بالجدال في القرآن .

فالمجادل خائض في آيات الله بغير علم . والابتداع إنما يقع ممن لا يتمكن من العلم الذي ابتدع فيه .

وجميع هؤلاء يجمعهم وصف واحد هو الإعراض عن الحق .

ويسعهم الوصف بالزيغ الذى هو الميل عن الاستقامة .

ولربما تمسك البعض بأن بحث هذه المسائل من الدين والتوحيد ، وهذه مغالطة من وجوه منها :

أن الخوض فى هذه المسائل تكلف ما لم يعلمه الله عباده ، وما لم يتكلم فيه الرسول – ﷺ - ولا صحابته الكرام ، ولا التابعون لهم ، وهم أبر الأمة قلباً ، وأعمقها فهماً ، وأنقاها عقلاً .... والأولى أن يسع الناس ما وسعهم ، وأن يسكتوا عما سكتوا عنه .

أن الخوض فى علم الكلام خروج عن حد الاعتدال وميل عنه إلى التلون والخصومات والتنقل . قال ابن عباس – رضى الله عنهما - : " لا يزال أمر هذه الأمة مقارباً حتى يتكلموا الوالدان والقدر . (١)

وقال عمر – ﷺ - : " من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل " (٢) .

كما أنه دليل على مرض القلب واعتلال الضمير . قال الإمام

١- جامع بيان العلم ٩٣/٢ .
٢- تأويل مختلف الحديث / ٦٣ ، شرح السنة ٢١٧/١ ، جامع بيان العلم ٩٣/٢

Scanned with CamScanner

أحمد [١] ﷺ - : " لا يفلح صاحب كلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل " [٢] .

وقال الإمام الشافعى : " من خاض فى علم الكلام فكأنه دخل البحر فى حال هياجه . فقيل له : يا أبا عبد الله إنه علم التوحيد .

فقال : قد سألت مالكاً عن التوحيد فقال : ما دخل به الرجل الإسلام ، وعصم به دمه وماله ، وهو قول الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله – ﷺ - .

وكان يقول : " إذا رأيتم الرجل يقول الاسم غير مسمى ، أو عينه فاشهدوا له بالزندقة " [٣] .

وقال : " محال أن نظن بالنبى – ﷺ - أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمها التوحيد " .

وقال : " لأن يبتلى المرء بما نهى الله عنه خلا الشرك بالله خير من أن يبتليه بالكلام ، ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح .

لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لنفروا منه كما ينفرون من الأسد . " وقال : " لأن يفتى العالم فيقال أخطأ خير له من أن يتكلم فيقال زنديق ، وما شىء أبغض إلى من الكلام " .

وقال : " حكمى فى أهل الكلام حكم عمر فى صبيغ ، حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل ، ويطاف

١- أحمد بن محمد بن حنبل " ١٦٤- ٢٤١هـ " له ترجمة فى : طبقات ابن سعد ٣٥٤/٧، الحلية ١٦١/٩، تاريخ بغداد ٤١٢/٤، سير أعلام النبلاء ١٧٧/١، مناقب أحمد لابن الجوزى.

٢- دغل : أصله الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه ، أو من قولهم : أدغلت فى هذا الأمر ، إذا أدخلت فيه من يخالفه ويفسده النهاية ١٢٣/٢

٣- سير أعلام النبلاء ٢٦/١٠، ٣٠، الميزان الكبرى ٦٠/١ .

Scanned with CamScanner

بهم فـي العشائر ، وينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

ومذهبى فى أهل الكلام أن تقنع رؤوسهم بالسياط وتشريدهم فى البلاد [١].

قال مالك - ﷺ - : " إياكم والبدع . قيل يا أبا عبد الله وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ...

وقال : لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع ، ولكنه باطل يدل علي باطل . [٢]

وقال ابن عبد البر : " أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في الأمصار من طبقات العلماء ، إنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم . [٣]

وقال الأمام الشافعي : " لو أن رجلا أوصي بكتبه من العلم لآخر وكان فيها كتب الكلام لم يدخل في الوصية ؛ لأنه ليس من العلم .

ولو أوصي لأهل العلم لم يدخل أهل الكلام . [٤]

١- سير أعلام النبلاء ٢٩/١٠ .
٢- شرح السنة ٢١٧/١ .
٣- جامع بيان العلم وفضله ٩٥/٢ .
٤- شرح السنة ٢١٨/١ .

Scanned with CamScanner

إن هذا من علماء الأمة ، وائمة الحديث النبوي ، مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وابن عبد البر . وغيرهم مما لا يتسع المجال لنقل آثارهم لدليل قاطع علي حبهم للمنهج ، ورغبتهم في استقلال فكر الأمة وتميزه ، ومدى حرص هؤلاء الأئمة علي صيانة عقيدة الأمة ، وهم بهذا قد سلكوا منهج الصحابة والكرام .

لذلك فقد سجل التاريخ وكتب التراجم تراجعات عدد غير قليل ممن كانت عنايتهم بعلم الكلام ، بل وأوصوا أبناءهم وذويهم بعدم الاشتغال به .

ومنهم إمام الحرمين الجو يني [١] فقد قال : " لو استقبلت من أمري ما استد برت ما اشتغلت بالكلام " [٢]

وقال : " يا أصحابي ؟ لا تشتغلوا بالكلام ؛ فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به .

وقال : " اشهدوا علي أنى رجعت عن كل مقالة تخالف السنة " [٣]

وأخرج الخطيب [٤] بسنده إلي أحمد بن سنان [١] قال : " كان الوليد الكرابيسي [٢] خالى ، فلما حضرته الوفاة قال لنبيه : تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني ؟

١- الجويني : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف " ٤٢٩- ٤٧٨ هـ " له ترجمة في : معجم البلدان ١٩٣/٢ ، وفيات الأعيان ١٦٧/٣ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٨/١٨ ، طبقات السبكي ١٦١/٣.

٢ - صون المنطق نقلا عن ابن السمعاني /٨٣ .

٣ - سير أعلام النبلاء ٤٧٤/١٨ ، طبقات السبكي ٢٦٠/٣ ولم يرتض السبكي هذا الكلام .

٤- الخطيب : أحمد بن علي بن ثابت " ٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ " له ترجمة في : وفيات الأعيان ٩٢/١ اللباب ٤٥٣/١٠ ، سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٨ ، تذكرة الحفاظ ١١٢٥/٣ ، شذرات الذهب ٣١١/٣ .

Scanned with CamScanner

قالوا : لا .

قال : " فتتهموني ؟

قالوا : لا .

قال : إني أوصيكم . أتقبلون ؟

قالوا : نعم .

قال " عليكم بما عليه أصحاب الحديث ؛ فإني رأيت الحق معهم " [٣] وأخيراً . فإن المراء والجدال مما يغير القلب ، ويورث الفرقة بعد الألفة ، والوحشة بعد الأنس .

وهو ساعة جهل العالم ، وبها يبتغي الشيطان زلته .

والله تعالي بقول : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ غافر /٤ .

وما نبتت بدعة ، أو كان كفرا وشكا إلا من تربة الجدال .

وفى السنة قال ﷺ : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل " ثم تلا النبى - ﷺ - ﴿ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف /٥٨ [٤] .

---

١ - أحمد بن سنان بن أسد " ت ٢٥٦ هـ " له ترجمة في : الجرح والتعديل ٥٣/٢ ، تذكرة الحفاظ ٥٢١/٢ ، سير أعلام النبلاء ٢٤٤/١٢ ، تهذيب التهذيب ٣٤/١ .

٢- الوليد بن أبان الكرابيسي ، نسبة إلي بيع الثياب ، له ترجمة في : اللباب ٨٨/٣ ، تاريخ بغداد ٤٤١/١٢ ، سير أعلام النبلاء ٥٤٨/١٠ .

٣- شرف أصحاب الحديث /٥٦ ، تاريخ بغداد ١٣/ ٤٤١ .

٤- سنن الترمذى ٣٧٨/٥ وقال : حسن صحيح

وقال – ﷺ - : "*كفى بك إثما أن لا تزال مخاصماً* " (١)

" *لاتمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعده فتخلفه* " (٢)

إن دعوة السنة إلى ترك المراء والجدال والخصام حول المنهج ، أو فيه حفاظاً على سلامته وقدسيته ، وكى يظل على صفائه ، ونقائه وإن علماء السنة بموقفهم الرافض للمراء قد صانوا على الأمة أمر عقيدتها ، كما حافظوا على قدسية القرآن والسنة .

لكن ماذا لو اضطر أحد من العلماء إلى استعمال ذلك ؟

لا يخلو الحال من أن يكون مجادلاً من هو أعلم منه أو أجهل منه ، كما لا يخلو الحال من أن يكون مجادلاً من يتفق معه فى الأصول والمذهب أو لا .

والواجب مع ذلك كله ذكر الحجج والبراهين .

سئل مالك - ﷺ - عن الرجل يكون عالماً بالسنة ؟ أيجادل عنها ؟ قال : لا ، ولكن يخبر بالسنة ، فإن قبلت منه وإلا سكت (٣) .

وقد خاض ميمون بن مهران (٤) مفتى الجزيرة العربية ، وأعطاك الخلاصة ، فقال :" لا تمار عالماً ولا جاهلاً ؛ فإنك إن

١- سنن الترمذى ٣٥٩/٤ وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .
٢- سنن الترمذى ٣٥٩/٤ وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .
٣- جامع بيان العلم وفضله ٩٤/٢ .
٤- ميمون بن مهران - الإمام الحجة " ت١١٧هـ " له ترجمة فى : طبقات ابن سعد ٤٧٧/٧ ، سير أعلام النبلاء ٧١/٥ ، تهذيب التهذيب ٣٩/١٠ .

ماريت عالماً خزن عنك علمه ، وإن ماريت جاهلاً خشن بصدرك " [١] .

وتأمل ما قاله وهب [٢] " دع المراء والجدال عن أمرك ؛ فإنك لا تعجز أحد رجلين : رجل هو أعلم منك ، فكيف تمارى وتجادل من هو أعلم منك ، ورجل أنت أعلم منه فكيف تمارى وتجادل من أنت أعلم منه ولا يطيعك فاقطع ذلك عنك " [٣] .

هذا رأى وهب وميمون بن مهران وهما من ثقات التابعين .

فإن كان ولا بد فالأمر يتطلب الأخذ بآداب الإسلام ، والتى منها التقاط أطيب الكلام وأحسنه .

- التعاون على طلب الحق والخضوع له وقبوله ممن جاء به مع الرضا والدعاء له بالتوفيق لإصابة الحق ، واحتمال الذل خير من انتصار يزيد صاحبه قمأة .

وقبول الحق من سمات المتواضعين ، ولا كذلك رفضه ، أو احالته باطلاً فمن مظاهر التكبر .

- قال حجة الإسلام الغزالى [٤] :" أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة ، لا فرق بين أن تظهر الضالة على يده ، أو

١- جامع بيان العلم ١ /١٢٩ .

٢- وهب بن منبه بن كامل - تابعى ثقة ، له ترجمة فى : تاريخ الثقات /٤٦٧ ، تهذيب التهذيب ١٦٦/١١ .

٣- صون المنطق /١٢١ ، سير أعلام النبلاء ٥٤٩/٤ .

٤- الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد الطوسى "ت٥٠٥هـ" له ترجمة فى : اللباب ٩٣٧/٢ ، تبيين كذب المفترى /٢٩١ ، وفيات الأعيان ٢١٦/٤ ، سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٩ .

Scanned with CamScanner
ب CamScanner

على يد من يعاونه ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق " [١] .

- المناصحة والإنصاف بحيث يحب كل واحد لصاحبه ما يحبه لنفسه من صواب ، ويبعد عن الخطأ ، ويكره لمناظره ما يكرهه لنفسه .

قال الشافعي - رحمه الله :" ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يظهر الله الحق على يديه دون حرص مني على مغالبته " " ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة " " ما ناظرت أحداً إلا على الحق عندي " [٢] .

ومن كلام الإمامين الغزالي والشافعي ، فإن الواجب أن تكون المناظرة مناظرة من يطلب الحق ، ثم يلزم كل نفسه بالإنصاف ، وأن يحب كلٌ لمناظره ما يحبه لنفسه .

وصف الإمام مالك - رحمه الله - القاسم بن محمد [٣] ﷺ ، بأنه قليل الحديث ، قليل الفتيا ، وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء ، فيقول له القاسم : هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك ، فإن كان حقاً فهو لك فخذه ولا تحمدني فيه ، وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك " [٤] .

١- إحياء علوم الدين ٤٣/١ .
٢- سير أعلام النبلاء ٢٩/١٠ .
٣- القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، الإمام القدوة الحجة ، توفي بعد المائة بخمس أو ست سنين ، له ترجمة في : طبقات الشيرازي /٥٩ ، وفيات الأعيان ٥٩/٤ ، سير أعلام النبلاء ٥٣/٥
٤- سير أعلام النبلاء ٥٧/٥

Scanned with CamScanner

إن من كانت هذه حاله لا يكره أن يرد عليه قوله ويتبين له مخالفته كما هو صنيع الإمام المبجل أحمد بن حنبل - ﷺ - فقد كان يذكر من أمر اسحق [١] بن راهويه ويمدحه ، ويثنى عليه ، ويقول : إن كان يخالف فى أشياء فإن الناس لم يزل بعضهم يخالف بعضا ، وكثيرا ما كان يعرض عليه أقوال مخالفيه فلا يوافقهم ولا ينكر عليهم أقوالهم .

وقد استحسن الإمام أحمد ما روى له عن حاتم الأصم [٢] وأنه قيل له : أنت رجل أعجمى ، لا تفصح ، وما ناظرك أحد إلا قطعته ، فبأى شىء تغلب خصمك ؟

قال : بثلاث : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأصون لسانى عنه أن أقول له ما يسوؤه " .

فقال أحمد : " ما أعقله من رجل " [٣] .

فإن قلت : ما السبيل إلى ذلك ؟

فقد أجاب الآجرى [٤] قال :" ويعلمه أيضا إن كان مرادك فى مناظرتى أن أخطىء الحق وتكون أنت المصيب ، ويكون مرادى أن تخطىء الحق وأكون أنا المصيب ، فإن هذا حرام علينا فعله ؛ لأن هذا خلق لا يرضاه الله منا ، وواجب علينا أن نتوب من هذا .

١- اسحق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلى " ١٦١ - ٢٣٨هـ " له ترجمة فى : تاريخ بغداد ٣٤٥/٦ ، سير أعلام النبلاء ٣٥٨/١١ ، ميزان الاعتدال ١٨٢/١ ، تهذيب التهذيب ٢١٦/١ .

٢- حاتم الأصم ، لقمان الأمة ، له ترجمة فى : تاريخ بغداد ٢٤١/٨ ، وفيات الأعيان ٢٦/٢ ، شذرات الذهب ٨٧/٢ .

٣- الفرق بين النصيحة ، والتعيير /١٠ ، وفيات الأعيان ٢٦/٢

٤- الآجرى : محمد بن الحسين بن عبد الله " ت٣٦٠هـ " له ترجمة فى : تاريخ بغداد ٥٤٣/٢ ، سير أعلام النبلاء ١٣٣/٦

فإن قال : فكيف نتناظر ؟

قيل له : مناصحة ؟

فإن قال : كيف المناصحة ؟

أقول له : " لما كانت مسألة فيما بيننا أقول أنا إنها حلال وتقول أنت إنها حرام فحكمنا جميعاً أن نتكلم فيها كلام من يطلب السلامة ، مرادى أن ينكشف لى على لسانك الحق فأصير إلى قولك مما يوافق الكتاب والسنة والإجماع ؛ فإن كان هذا مرادنا رجوت أن تحمد عواقب هذه المناظرة ونوفق للصواب ، ولا يكون للشيطان فيما نحن فيه نصيب " (١) .

وثمة آداب أخرى ، كإصلاح السريرة ، وسلامة الباطن ، وأن تزيدنا المناظرة وداً وحباً ، وإلا تجرنا إلى رد سنة من سنن المصطفى - ﷺ - وتغليب نفسية التصافح والتسامح والتغافر ، وأن تكون فى خلوة ، وفى الأمور الواقعة ، مع الاتفاق على أصل يمكن الرجوع إليه ، أو رأس يمكن التحاكم إليه .

فإن كان الجدال مع المخالف فى الأصول والمذهب ، فقد قال مالك - رحمه الله تعالى : إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل ، وصرف صاحبه عن مذهبه ، أو خشىَ ضلال عامة ، أو نحو هذا (٢) .

وعلى هذا تتنزل النصوص الآمرة بمجادلة أهل الكتاب ، وما جرى بين عمر - ﷺ - واليهود بشأن جبريل وميكائيل ، وما كان من سيدنا على وابن عباس - رضى الله عنهم - مع الخوارج ، ومن

١- أخلاق العلماء /٦٠ - ٦١ .

٢- جامع بيان العلم وفضله ٩٥/٢ .

Scanned with CamScanner

هذا - كل مناظرة لأهل الإلحـاد والبدع بحيث يتم قطـع دابرهـم ، واستئصال شأفتهم ، فإنه من فروض الدين .

ولعلماء الأمة ممارسات عملية وتجارب فى هذا المجال .

وبالله التوفيق .

Scanned with CamScanner

ب - الأوامر

تلك التى أمرت بها السنة ، ومعها أشير إلى :

(١) أن محور العامل الأول قد دار حول ما يجب تركه والبعد عنه ، سلامة للمنهج وحفاظا على قدسيته ، وقدمت الحديث عن المتروك حذراً من اقترابه ، وعملاً بقول القائل " التخلية مقدمة على التحلية " ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، والوقاية خير من العلاج ، كما أن المنهيات يجب تركها جملة وتفصيلاً على الدوام ، وفى الزمان والمكان ، وترك المحظورات مقدم على فعل المأمورات ولأن المنهيات تتعلق بالشهوة والشبهة ، والمألوف والعادة ، فلها اتفاق مع الميل النفسى ، فإذا تركت أمكن فعل الأمر .

وربما بحكم ما غلب على ظنى أن الترك - سلب - وهو أسهل من الفعل - الإيجاب - فكان تقديم الأسهل .

ولهذا ما يؤصله فى القرآن والسنة .

قال الله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ... ﴾ الآية ﴾ الممتحنة /١٢ .

فمع أنها مبايعة - أخذ فيها العهد - على أرض المدينة ، ومع بداية التكاليف إلا أنها لم تذكر شيئاً من الأوامر .

وفى سورة الأنعام نقرأ قول الله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ... ﴾ الآيات ١٥١ - ١٥٣ .

وفيها جملة من المنهيات قدمت فى الذكر على المأمورات .

Scanned with CamScanner

ومن السنة ما رواه أبو هريرة - ﷺ - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول :"*ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ...* " (١) .

ثم كان من مفردات هذا العامل ما قد علمت ، ولم يكن هذا تقصيا لكل العوامل ، فقد يوجد غيرها ، مما له صلته بتفرق الأمة واختلافها ، كالتعلم والتفقه لغير العمل ، والتلقى من الكتب دون اعتماد على " الشيخ " والبدء بكبار مسائل العلم قبل صغارها ، والفصل بين المنهج والتطبيق ، والتأويل المستبعد فهو من أخطر الأسلحة المعيقة للمنهج ، كذلك التشاغل بالقضايا الهامشية ، وتهميش القضايا الكبرى ، ... إلى غير ذلك .

وهذه القضايا ... التى فصلت القول فيها ، والتى أجملت أيضاً تنتهى ولا بد بصاحبها إلى الضلال والبعد عن جادة الطريق .

كما أن لها اغراءات وإغواءات ، وتزيين وتزين وزخارف من القول وغروراً .

إلا أنها ضعيفة جبانة ، تخشى صحوة المؤمن ويقظته .

ويعين على الخلاص بعد التبرؤ والتخلى عن العوامل السابقة : أن يلزم المؤمن نفسه بالعوامل الآتية والتى منها ما يتعلق بتحقيق الأمر ، وذلك مثل :

- العيش فى ظلال الجماعة ، وتجديد عقد الولاء للطائفة المنصورة ، والانتماء للفرقة الناجية .
- الاعتصام بحبل الله تعالى .
- وجوب إحياء فقه الدعوة .

١- الحديث تقدم تخريجه

- أن تبنى الأمة فكرها ، وتجدد عقلها على أساس من : فقه الإسلام فقها عمليا ، الحفاظ على اللغة العربية كوعاء للإسلام وعروبة القرآن والسنة ، ثم دراسة التاريخ ، ففيه تفصيل كل شيء والقرآن يرد الأمة إلى قراءة التاريخ ، والنظر إلى آثار الماضيين .

(٢) أجملت القول فى الأوامر - مراعاة لظروف ومقتضيات البحث ، وقد يتسع العمر فأفصل القول فيها فى بحث مستقل ، وربما انتفع بالفكرة وحققها من هو أولى بها منى .

والله الهادى إلى الحق

Scanned with CamScanner

من نتائج البحث

أن ندرك أهمية المنهج والاعتصام به والتكتل حوله ، وحرص السنة النبوية على استقلاله وتمييزه .

بالمنهج ومعه يعود للمسلم وزنه وثقله وقيادته للحياة والأحياء .

وبالمنهج ومعه يطلق المسلم عقله من وطأة القيود ويمنحه القدرة على التخلص من أسر الأهواء ، وقيود التقليد والبدع بعد أن روض على الخنوع لها سنين عددا .

أى قيد وأى أسر ؟

قيد الفهم الخاطىء ، والابتداع ،والاستيراد للمناهج الفاشلة .

قيد اللجاج فى المنهج والخصومات ، والجدل العقيم والمراء الذى يورث الضغائن ، ويقسى القلوب ، ويورث الفرقة ، قيد العجز عن فعل أى شىء ، أو القيام بشىء .

قيد الضيق والعمى بترك النافع المفيد .

قيود وقيود أصبحت معها قضية المنهج مقلقة ، ووضعتنا أمام مشكلة أكثر تعقيداً ، وأصبحنا معها بحاجة سريعة نبحث عن حل ، ونتطلع إلى العلاج ، ونترقب القادم الذى يضع الأمة فى بداية الطريق .

بدعوة مؤصلة تتأبى على خطط الكيد والمكر ، وترفض البدع والأهواء ، وتعتمد منهج العيش فى ظلال الجماعة المسلمة ، وتتمسك بالكتاب والسنة ، تحى فقه الدعوة ، وتجدد البناء على أساس من فقه الإسلام ، والحفاظ على اللغة ودراسة التاريخ .

وللوصول إلى هذه الدرجة يتعين علينا .

العمل على إعادة صياغة الفرد وبنائه وفق معايير المنهج الإسلامى .

Scanned with CamScanner

العمل على اعتماد الإسلام منهج حياة .

تربية الأفراد على الثقة بالمنهج والاعتزاز به .

تبصير الأفراد بخطورة جلب الأفكار الوافدة .

التخلص من التبعية للغرب .

تكوين رأى عام حر يرفض الابتداع ، ويكون لدى الناس حصانة ضده .

تأهيل الناس جميعاً وتهيئتهم إلى عودة حميدة راشدة إلى الإسلام فهما وسلوكا ، وتهيئة الأرض والمناخ كذلك بالتخلص من العلل والأمراض .

والأمة ما تزال قادرة على هذا ، والأمل فى الله كبير أن يوفق ويعين ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف /٢١ .

كما كان من نتائج البحث ، ما كشفت عنه الدراسة من دور عظيم لعلماء الأمة لا سيما أهل الحديث وموقفهم الثابت الرافض لأهل الأهواء والبدع ، وحفظهم على العامة أمر عقيدتها ، وصيانتها لقدسية القرآن والمنهج .

﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ التحريم /٨ .

وارزقنا الله بصرا نافذا عند ورود الشهوات ، وبصيرة نافذة عند حلول الشبهات ، ونوراً نمشى به فى الظلمات ، ومنهجا نستضىء به فى مفارق الطرقات .

اللهم آمين

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس

الخير وآله وصحبه ، وسلم

الباحث

Scanned with CamScanner
تم المسح ضوئيا بـ CamScanner